سامح فايز

جنة الإخوان

رحلة الخروج من الجماعة

تقديم
ثروت الخرباوي



سامح فايز

جنة الإخوان

رحلة الخروج من الجماعة



رقم الإيداع: 2012/23495
الترقيم الدولي: 978-9953-582-59-7

طبعة دار التنوير الأولى: 2013

الناشر: © دار التنوير
بيروت ـ القاهرة ـ تونس

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 009611843340
مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 00201007332225 - 0020227738931 فاكس: 0020227738932

البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

تصميم الغلاف: أمجد حسين
تصحيح لغوي: رفعت فرج

جنة الإخوان
رحلة الخروج من الجماعة

تقديم
عاد ليحكي

سامح فايز شاب من شباب مصر، حين تراه ستدرك لماذا نجحت الثورة في الإطاحة بمبارك، ستدرك أنَّ هناك جيلاً لم يقبل الثوابت التي تربت عليها أجيال عديدة فقرر أن يثور على النمط الاستبدادي الذي عاش وعشش في العقول والأفئدة، لم يخش هذا الجيل شيئاً، لم يبك على مكتسبات أو مصالح، لم يفكر في التزلف للحاكم كي يحصل على عقد عمل أو سكن؛ لأنه لا يوجد من الأصل عمل أو سكن، ولأن الحريَّة عند هذا الجيل أثمن من الأشياء التي ظللنا نراها وكأنها الدنيا، الحريَّة التي لم نعرفها تاق لها هؤلاء الشباب، ومن أجل الحريَّة ذهب إلى الموت بإرادته، كتب شهادة وفاته ولم يقبل أن يكتب عقد زواجه في ظل الاستبداد، ذهب للشهادة في سبيل الحريَّة كما كنا نذهب لدور السينما، نجح هؤلاء الشباب فيما فشلنا فيه.

ولأنَّ سامح فايز فوق أنه مصري كان إخوانياً منذ طفولته إلا أنَّ طبيعته الفتية الثائرة وقفت حجر عثرة أمام عسكرته وتحويله إلى «إنسان آلي» يدار بالريموت كونترول، لذلك كان يجب أن يثور على صور الاستبداد

التي تحكمت في الجماعة باسم الدين، كان يجب أن يثور على عسكرة الجماعة، وتحويلها إلى فرقة شبيهة بفرق الأمن المركزي، دخل سامح إلى الإخوان قبل أن يستقيم عوده وينضج تفكيره، وبدأت رحلة تحويله من إنسان إلى أداة، إلى آلة تساوم بها الجماعة وتشهرها في وجه خصومها؛ تهادن بها النظام حيناً وتهدِّده حيناً آخر، ولكن سامح قرأ قول الله سبحانه وتعالى: «اقرأ» فقرأ، ومن القراءة كانت المعرفة، تلك المعرفة التي كانت وسيلة سيدنا آدم وهو يلج طريقه على الأرض؛ فقد علَّمه الله الأسماء كلها، والأسماء هنا كانت هي معرفة الشيء وطبيعته وكنهه، وقد فعل سامح فايز مثل جده الأكبر آدم عليه السلام، حاول أن يتعلم الأسماء كلها، فعرف الحرية، والكرامة، والإنسانية، والثورة، والوسطية، والاعتدال، والفهم، فتنوعت معارفه واطلع على ثقافات مختلفة من شتى البقاع الفكرية فكان عصيّاً على الاستخدام، عصيّاً على البرمجة المقيتة.

لم يكن سامح فايز في رحلته الإخوانية سهلاً طيِّعاً، ولكنهم كانوا يظنّونه شاباً مشاغباً مزعجاً، وكان مردّ هذا الظن أنه كثير السؤال! كثير الاستفهام، وهذه أشياء تقدح في إخوانيته، فكان أن تسلّق سور الجماعة ونظر إلى العالم الذي كان يظنُّه عالم الأشباح؛ فإذا به عالم من لحم ودم، حياة إنسانية بكل معانيها، غاب عنها وغابت عنه، عرف وقتها أنه كان يعيش في عالم الأشباح، فقرر أن يقفز من فوق سور الجماعة، وولّى هارباً لا يلوي على شيء، فقط قرر أن يكون مصرياً خالصاً، يختلط إسلامه مع مصريته فيصبح مصرياً سائغاً لا مثيل له، وحين ترك عوالمه الأولى وانضم إلى العالم الحقيقي قرر أن يكتب

تجربته، لم يقصد سامح من كتابة تجربته ذماً ولا تجريحاً في الجماعة، فقد كان بينه وبينهم نسب إنساني وصهر مشاعريّ، من بين الإخوان شيخه الذي يحترمه وصديقه الذي رافقه، كان بينهم الكلمة المقدسة لدى المصريين وهي «العيش والملح». سامح فايز لم يترك حبَّه القديم لهم، فما زال يحبهم، ويترنّم حيناً بصوته الجميل المطرب بأبيات الشعر:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

ولكن هل يمنع الحب الإنسان أن يكتب تجربته الإنسانية؟ التجارب الإنسانية هي التي ترتقي بالبشرية، وبغيرها نكون جماداً لا يستطيع أن يحرك شيئاً، ولفقدنا الدفء والتواصل، ولما استطعنا أن نكتشف أخطاءنا، ونصحح مسارنا ومصائرنا. تجربة سامح التي وضعها في كتابه هي محض تجربة إنسانية يرد عليها كل ما يرد على معارف البشر من صواب وخطأ ونسيان، فمعارفنا كلها نسبية، ولا يستطيع أحدنا فرداً كان أم جماعة أن يكون مطلقاً، أو أن تكون معارفه مطلقة، لذلك كان سامح حريصاً على أن يؤكد أنه لا يهاجم ولا يجرح ولكنه يحكي «حدوتة مصرية» بسيطة لشاب مصري استجاب لنداء النّدّاهة فذهب إليها، ولكنه عاد إلينا مرة أخرى، وحين عاد، عاد ليحكي.

ثروت الخرباوي

علَّمتني مدرسة الإخوان

لو أنَّ كل كلب عوى ألقمته حجراً   لصار الصخر مثقالاً بدينار

مقدمة
البداية دائما سؤال

على مقهى زهرة البستان جمعتني ليالي التحرير بمجموعة من الأصدقاء، دار نقاش خفيف بيننا ما لبث أن تشعبت خيوطه، وكان محور النقاش السؤال المعتاد الذي لا يملّ الآخرون من طرحه على مسامعي: لماذا تركت الإخوان المسلمين؟ كنت أجد في عيني طارح السؤال لهفة لاختراق هذا العالم الغيبي الذي هو حكر على أعضاء جماعة الإخوان المسلمين. قد تقرأ عن الإخوان بالمدح أو الذم، لكن أن تتحدث مع إخوانيٍّ سابق ومسترد من تلك الجماعة ـ التي من الصعب أن يخرج من ربقتها أحدهم ـ فهذا أمر آخر.

في البداية كنت أتجنّب الخوض في هذا الأمر، كنت أهرب من الإجابة عن السؤال بدعوى أنني أحترم أيَّامي مع هؤلاء، وأنني لا أود أن أتحدث عن أناس جمعتني بهم أخوة في يوم من الأيام، حتى سألني صديقي الدرعمي والباحث في دار الإفتاء مصطفى ثابت وأصر على انتظار الإجابة التي أردت أن أهرب منها كعادتي، غير أن ذلك لم يرو ظمأ السؤال لدى صديقي الدرعمي، فأخذني بقدرته الحوارية التي

يبهرني بها دائماً يميناً ويساراً محاولاً استخلاص الأمر من بين ثنايا الحوار، وأثناء هذا النقاش الذي طال لأكثر من ساعة أدركت أنني لا أملك إجابة من الأصل عن السؤال، وأنني طوال تلك السنوات التي مضت لم أكن أملك حيال الأسئلة التي طرحت عليَّ أي إجابة، أو حتى مشروع إجابة، وبدأت أسأل نفسي هذا السؤال: لماذا تركت الإخوان المسلمين؟!

عندما عدت بذاكرتي للوراء وجدت أنني لم أنضم لجماعة الإخوان المسلمين كما ينضم أحدكم لتيّار فكريٍّ أو حزب سياسيٍّ أو توجه معين، أنتم تختارون هذا الفصيل الذي تريدون أن تحيوا داخل جدرانه، أما في حالة الانضمام إلى الإخوان المسلمين فالجماعة دائماً هي التي تختار.

أخبرني شيخي بعد سنوات من تركي للجماعة أن التعليمات جاءت لهم بحتمية إعداد جيل جديد يحمل راية الجماعة مستقبلاً. كان ذلك في العام 1995، وكنت ممن تم اختيارهم وأنا لا زلت طفلاً في الحادية عشر من عمري، لم يشغل أبي باله بالأمر، هل لأنَّ ذلك الموظف البسيط بهيئة النقل العام والذي يخرج كل يوم فجراً ويأتي بعد أن تغرب الشمس لا يجد حيزاً من وقته لهذا الطفل، أم أن رؤية طفله الصغير يصلي ويقرأ القرآن ويقيم الليل شيء حبيب إلى النفس. لم أدرك حينها الآلية التي تتعامل بها الجماعة مع أعضائها. كان من الصعب على الطفل الصغير إدراك أن تلك الأوراد والأذكار والصلوات والكتيبات التي امتلأت بها جدران مكتبته الصغيرة ليست في الأصل كي يصير شيخاً تقيّاً، إنما هي وضعت ليكون إخوانيّاً مطيعاً.

في محاضرة للمهندس محمد عادل بساقية عبد المنعم الصاوي في يونيه 2012 بعنوان: «العسكر والدولة»، تحدث عن علاقة العسكر بالدولة وأجاب عن السؤال الذي يشغل بال الجميع عن كيفية التحكم في تلك الآلة العسكرية الوحيدة التي تملك القوة داخل المجتمع، والتي من الممكن أن تنقلب في أية لحظة على نظام الحكم المدني لتصير هي الحاكم. كان المحاضر يجيب عن آليات تلك السيطرة، التي أخذتني بعيداً عن العسكر بمفهوم المحاضرة إلى العسكرية بمفهوم جماعة الإخوان.

تحدث المحاضر عن آليتين لهما الفضل في الإبقاء على تلك الآلة بعيداً عن الانقلاب على مدنية الدولة. الآلية الأولى: قتل القدرة على الإبداع والتفكير، أنت مجرد آلة قوية يستخدمها النظام الحاكم وقت أن يكون في حاجة لقوة تحمي الدولة، فلو أن هذا الجندي أعمل عقله وأطلق لإبداعه العنان لكان خطراً على مدنية الدولة. وطرح المحاضر يوليوس قيصر نموذجاً، هذا القائد الروماني الذي تمكّن أن يقضي بانقلاب عسكري على ديمقراطية 500 عام، واستدل على ذلك بأن الكليات العسكرية وكليات الشرطة لا تشترط في المتقدم مستوى عقلياً أو قدرات معينة. بإمكانك أن تلتحق بكلية الشرطة أو الكليات العسكرية بأدنى الدرجات، هم فقط يركزون على القوة البدنية، أيضاً أنت مطالب بأن تنعزل عن العالم ـ في سن من المفترض فيها أن قدرتك على التفكير والإبداع في طور التمهيد لبلورتها ـ لتجد نفسك داخل معسكر لمدة أربع سنوات، ويمنع عليك أن تصطحب معك داخل أسوار هذا المعسكر أي كتب فلسفية أو فكرية أو كتب تحمل أية نظريات قد تدفعك للثورة على النظام أو الانقلاب عليه.

الآلية الثانية التي تحدث عنها محمد عادل هي الفاشية بمعنى تقديس القائد، فأنت تربي الجندي على الطاعة العمياء وتقديس القائد ووضع رؤية القائد في مصاف الكمال؛ فهو لا يخطئ، بل لا يمكن أن يخطئ. وأورد القصة الشهيرة لمحاولة اغتيال هتلر على أيدي بعض جنرالاته، وكيف أن الجنرالات أخبروا روميل بالأمر إلا أنه أبى أن يشترك معهم في اغتيال قائده ـ رغم إداركه لحجم تلك الهاوية التي يجذب هتلر ألمانيا صوبها ـ وقال لهم إن نجحت عملية الاغتيال واحتاجت ألمانيا لروميل فأنا مستعد لتلبية النداء. العجيب في الأمر أن روميل هذا القائد العظيم لم يبلغ عن رفاقه، ولكنّه في الوقت نفسه لم يشترك معهم في محاولة الاغتيال. لم تواته القدرة على اغتيال قائده.

كان الحضور في ساقية الصاوي يحيون في عالم العسكر، وكنت أنا أحيا في وادٍ آخر، هو عسكرة الإخوان.

هل لأن العزلة التي تفرض على شباب الإخوان قادرة على قتل أي إبداع أو قدرة على التفكير؟ فهم يخلقون لك عالمك الخاص والعام. أنت تعيش في تجمع من بضعة أفراد يطلقون عليه «أسرة»، بديل لك عن أسرتك الحقيقية، ودائماً ما تصف أعضاء تلك الأسرة بلفظ أخيك فلان، وأخي فلان؛ فهم إخوتك في الله، وتلك الأسرة تحيطها أسر أخرى متعددة تمثل عائلتك، وهي أقرب إليك من أي كائن كان. قد تجد أنك تعيش بين المئات من الأفراد بل الآلاف، غير أنك في الحقيقة تعيش في معسكر مغلق على نفس الفكر والنهج والآلية. أنت لا تدرك أن هناك عوالم أخرى خارج هذا العالم، بل إنك لا تتخيل أن هناك من الأصل عوالم أخرى. وللإخوان تفسير غريب لهؤلاء الذين يخالفونهم

ويحيون خارج أسوارهم، فهم يصنفون غيرهم صنفين لا ثالث لهما. إما عميل للنظام الكافر الذي يحارب الإسلام المتمثل في جماعة الإخوان (أمن دولة)، وإما علماني كافر يدحض الدين. أنت لا تقرأ سوى كتب الإخوان التي كتبها الإخوان عن الإخوان، ولا تصلي إلا في مسجد الإخوان الذي أنشأه الإخوان للإخوان، ولا تتزوج إلا الإخوانية التي نشأت في أسرة تربّت على نهج الإخوان، حتى الرحلات، هي تجمعات من الإخوان تركب سيارة يملكها الإخوان لتذهب إلى معسكر أعدَّه الإخوان من أجل الإخوان.

أذكر أن أحد شباب الإخوان رآني ذات يوم أحمل رواية الأديب نجيب محفوظ «أولاد حارتنا». حينها علته الدهشة من هذا الشاب الإخواني الذي فتر إيمانه، كيف له أن يقرأ تلك الرواية الكافرة التي مثّلت الإله والأنبياء؟ بل كيف له أن يقرأ رواية من الأصل؟

والفاشية تظهر بوضوح في هذا النظام الهرمي الذي أسّس له حسن البنا في تشكيل الأسر والشعب والمناطق فالمحافظات حتى نصل لمكتب الإرشاد. كل أسرة (سَريّة لدى العسكر) مكونة من بضعة افراد يتحكم فيها قائد، وكل مجموعة من الأسر تشكل شعبة (كتيبة لدى العسكر) وكل مجموعة من الشعب تمثّل منطقة فمحافظة (لواء لدى العسكر)، وكل فرد مطالب بطاعة الذي يعلوه دون رد؛ فالأمر قد جاءهم من مكتب شورى الإخوان الذي لا يخطئ أبداً، وإن تجرأت بالسؤال فأنت معرض للتحويل لمجلس تأديب (حوّل نفسك مكتب ياعسكري)، وقد تحاكم (عسكرياً) لتفصل من الجماعة (ولا طعن أو تظلم كما في المحاكم العسكرية).

تلك التربية قد تتسبب بقصد أو دون قصد منهم في قتل مواطن الإبداع والنقد لدى شباب الإخوان، كما تعلي من مفهوم تقديس القائد. أخبرني صديق أن الإخوان احتشدوا في التحرير إثر صدور الحكم على مبارك ومعاونيه، بعد أن وصلتهم رسالة على الهاتف المحمول محتواها أنه على الجميع أن يوجد في ميدان التحرير الآن، ورغم أني لم أتشكك في الأمر لمعرفتي بهم إلا أني أردت التأكد بنفسي؛ فسألت أحدهم: هل يعتصم اليوم في الميدان؟ فأخبرني أنه ينتظر الأمر. أو بمعنى أدقّ ينتظر رسالة تأتيه على هاتفه المحمول، قد يتعارض هذا الأمر مع مصلحة الوطن وقد يتفق، غير أن تنفيذ الأمر له الأولوية هنا.

محاضرة المهندس محمد عادل وسؤال الصديق الدرعمي هما اللذان أجابا عن السؤال: لماذا تركت جماعة الإخوان المسلمين؟

أنا لم أترك الإخوان لأن هناك خلافاً فكرياً أو أني ناقشتهم، أو دار بيني وبين أحدهم حوار، ذلك أن تلك الأمور لم تكن متاحة من الأصل. لقد تركت الإخوان لأني تسلقت السور الذي أحاطونا به في معسكراتهم وتطلعت لتلك العوالم خارج هذا السور، مثلاً كان اكتشافي لسور الأزبكية بكتبه بمثابة اكتشاف كولمبس لقارة أمريكا. أخيراً، قرأت عن الإخوان من خارج أدبيات الإخوان، وخرجت في رحلات غير رحلات الإخوان، بل ومختلطة نساءً ورجالاً، أدركت أكذوبة أن الجميع أمن دولة، وأن الآخر علماني يدحض الدين بالضرورة، تلمست الطريق لزهرة البستان والندوة الثقافية وسوق الحميدية وساقية الصاوي ومكتبات وسط البلد، قرأت عن الزعيم الراحل عبد الناصر فلم أجد أنه كافر زنديق كما قرأت في أدبيات

الإخوان، واكتشفت هذا الاكتشاف الرهيب وهو أن سعد زغلول زعيم وطني وليس عميلاً لأوروباً التي أرادت وأد الهوية الإسلامية، وأن هناك يساراً وليبراليين وأحزاباً وسطاً، وآخر يعيش من أجل مصر، نعم مصر، تلك الكلمة التي كنت أجهلها؛ ذلك أني لم أكن أحارب إلا من أجل الخلافة والتي عاصمتها مكة، وكان الطريق لذلك تحرير القدس وقتل اليهود، لقد اكتشفت أنني أعرف عن فلسطين أكثر مما أعرف عن المحافظة التي أقطنها.

عندما تخرج من دائرة الإخوان تصبح عدوّاً، فأنت إذا كنت بينهم. يجب عليك أن تؤيد ما يرونه، فإن لم تفعل هُجرتَ وكأنك كأن لم تكن! قد يختلف أحدكم معي أو يتفق، لكن ما حدث من مسئول الأسرة التي كنت أنتسب لها في الإخوان ـ بعد سنوات من تركي للجماعة ـ يؤكد طرحي هذا؛ ذلك أني في إحدى المرات أوقفته في الطريق وطرحت عليه هذا السؤال الذي طالما آلمني: لماذا يدير وجهه كلما رآني ولا يرد سلامي، وبعد ضغط أخبرني أنني تركت الجماعة وبهذا قطعت كل الصلات، قلت له: غير أنك أستاذي الأول ولك أدين بالفضل، فبادرني قائلاً: كنت أكذِّبهم فيما قالوا لي عنك إلا أنك خيبت ظني، سألت: ماذا قيل عني؟ قال: أخبروني أنك لن تستمر في تلك الجماعة ولن يكون لك شأو معنا.

أدركت حينها أن الإخوان سلبوني حتى آلية ترك الجماعة، فهم من اختاروني سابقاً، وهم من تركوني أيضاً. فبما أني تواصلت مع دوائر أخرى غير دائرتهم فقد «فسدت عقيدة العضو ولم يعد ذا فائدة ومن الأفضل هجره». وهنا عرفت الإجابة، فحينما يسألني أحدهم لماذا

تركت جماعة الإخوان المسلمين سأرفع رأسي للسماء هنيهة وكأني ألملم شتات أفكاري وأطيل النظر وكأني أستحضر فلسفتي الحياتية، ثم ألقي عليه القنبلة التي ينتظرها بشغف قائلاً: الإخوان هم من تركوني يا سيدي ولست أنا من تركهم.

* * *

وسواء كنت تاركاً أو متروكاً فالأمر ليس بالهين، أن تتحلل مما تراه عقيدة، أن تكفر بالثوابت، أن تخرج من هذا الطوق الذي أحاط بعنقك سنوات وسنوات، أن تلفظ الدين كما عرفت، نعم ألفظ الدين، فالإخوان في نظر شبابهم هم ظل الله، هم الدين، ومن يكفر بهم فقد كفر بالدين. لا أجد كلمات لها من القدرة أن تحمل مقدار هذا الألم، وتلك المعاناة التي ألمت بي، ولا أجد الكلمات التي تملك القدرة على أن تضع كل من يقرأني الآن على طريق آلامي وأحزاني.

إنها أوراد وأذكار وصلوات وقراءات ومعسكرات وأيام رباط كلها، تأخذك دون أن تدري لأن تؤمن بهذا الدين الجديد المسمى «دين الإخوان المسلمين»، والذي نبيه ورسوله حسن البنا، المؤسس الأول لهذا الدين، فأنت حين تترك الإخوان كأنك تترك ديناً وليس فكراً، تترك الله وليس حسن البنا، قد يندهش البعض، وقد يندهش الجميع، غير أن كل من اندهش من المؤكد أنه لم يكن يوماً عبداً لحسن البنا.

دين الإخوان

متى كانت البداية؟ هل كانت في ذلك اليوم؟ كان الموعد المحدد لمسابقة تقيمها مدرستي الابتدائية بين فصول المتفوقين. جميع المتسابقين تم اختيارهم بالقرعة بين طلاب عدة لتقارب مستواهم، أما أنا فكنت أحجز مقعدي مسبقاً في أية مسابقة ودون قرعة مع أحدهم. كان القائم على مجموعتنا هو أستاذ التربية الدينية، كان خطيباً وإماماً لأحد المساجد أيضاً، علمت في وقت لاحق أنه كان منتمياً لجماعة الإخوان المسلمين. لم يكن ليّن الجانب، وكنا نهابه حتى ونحن في فرشنا وبين أهلينا، وكأني بالأمس القريب أراني وأنا نائم على قلمي وكتابي أنهي واجباتي، ليس حباً فيها، إنما خوفاً من عقابه.

في يوم المسابقة نظر لي مدرس التربية الدينية نظرة فخر وكأني من سيأتي بالنصر العاجل. كنت لا أبارى في حفظ القرآن والأحاديث النبوية، وكان واثقاً من ضعف المنافسين في هذا الجانب، فهو مدرس الدين وأدرى بحال طلابه، غير أن تلك الآمال التي وضعت عليّ أثقلت كاهلي. قد يضحك أحدكم من هذا الموقف الطفولي، غير أنكم لا تدركون أن لكل فترة عمرية أثقالاً وأحمالاً من الصعب أن تتخطاها وإلا حدثت الكارثة، وقد كان.

زادت الرعشات مع بداية المسابقة، وزاد تأملي في الجدران من حولي، وكأني أناجيها أن ألهميني الثبات. وزادت خيالاتي، فالنصر قادم، وأنا من سآتي به. أنظر لمخيلتي وهي تنصبني على عرش المتفوقين في المدرسة، والجميع ينظر بغبطة لهذا الذي يتمنى كل منهم أن يحل مكانه، وزادت تخيلاتي، ومعها تلاشت رعشاتي أو تناسيتها، ولم أعد أتأمل في الجدران ذلك أنني سرحت في عالم آخر من النشوة، اسمه عالم الخيال، الذي يذهب بك كل مذهب، ويأتي لك بكل عصيّ، غير أني فجأة شعرت بلكزة في كتفي جعلتني أقفز من مكاني. رأيت أستاذ الدين وهو يعيد السؤال الذي طرح عليّ، كنت نسيت الحضور وتركتهم لعالم آخر صنعته مخيلتي. كانت الإجابة بضع آيات من القرآن كنت أحفظها جيداً، بل كنت أحفظ السورة كلها. لا أعلم كيف نطقت بآيات أخرى غير المرادة في بادئ الأمر، غير أنني ما لبثت أن عدت وقرأت الآيات المقصودة، لكن كان قد فات الأوان. كان هناك وقت للإجابة، وكان يجب ألا أخطئ في تحديد المراد من أول لحظة، وتمسك المنافس بموقفه، وكان لأستاذ الدين موقف لن ولم أنسه.

نظرت إليه بعين المترقب فوجدته وقد رفع رأسه للسماء وقد علت وجهه علامات السخط، وفي ثوان معدودة لم يلحظ وقعها غيري أنزل رأسه وقد أجهز عليّ ببصقة لا صوت ولا ريق لها، بصقة لا يراها ولا يشعر بها غيري، وبكيت، ومن هنا بدأت رحلتي مع البكاء الذي لم أجد له بديلاً يخرجني من هذا العالم الضيق بأفكاره ومعتقداته، ومن هنا أيضاً تلبستني الرعشة التي جعلتني لا أقوى على المواجهة

في أي سباق، ولا على التقدم للقيادة في أي تجمع، وصرت أعشق أن أكون مجرد تابع، وأكره أن أكون يوماً متبوعاً، ذلك أني أخشى من بصقة مماثلة ممن قد أضيعهم، ومن هنا أيضاً زاد معي عشقي للخيال، فصرت أهرب إليه كثيراً كلما ضاقت بي الأحوال، وضاقت بي عبارات الدنيا وأفكار قاطنيها.

كانت سقطة أفقدتني توازني، غير أن ما آلمني أنني وحدي من تحملت آلام الهزيمة. مر الأمر على زملائي جميعهم وكأن شيئاً لم يكن، حتى أستاذي الذي رماني ببصقته نسي هو الآخر، غير أني لم أنس.

حضر شهر رمضان، كان ذلك في العام 1996، كانت جماعة الإخوان المسلمين تقيم لقاءً يومياً في مسجد قريتي بعد صلاة العصر يتبارى فيه الأقران ويتسابقون. أطفال في عمري وأصغر أو يكبرونني بعام أو عامين. كان إخوتي من المترددين على هذا اللقاء طمعاً في جائزة الإخوان اليومية، غير أنهم كانوا يعجزون عن الحصول عليها والأيام تمر، ويقترب معها انتهاء الشهر وضياع الأمل. أخي الأكبر طلب مني أن أصاحبهم في أحد تلك الأيام الرمضانية، كان يعلم جيداً أنني أقدر على الإتيان بالجائزة، وكان الأمر يمثل تحدياً بالنسبة إليه هو وأخي الأوسط، كم كانت تلك الأمور تدخل السعادة على قلوب الأطفال، كنا نقنع بأقل القليل وكأننا احتوينا الدنيا بين أذرعنا. كنت لا أزال أخشى من المواجهة، من بصقة أخرى، وكنت أضيق بتلك الرعشات التي تعتريني، وهذا الخيال الحالم الذي يأخذني من عالمي، وبعد طول إلحاح ذهبت، قلت أذهب لأتخلص من هذا الإصرار، وليس

من الحتمي أن أشترك في أية مسابقة، لأجلس بعيداً عنهم أتابعهم وهم يتبارون، غير أني مع أول قدم وضعتها داخل المسجد شعرت بهذا الذي اخترقني، لكن لم أجد له ترجمة حتى اللحظة. الغريب أن هذا الإحساس يخترقني في كل مرة أعود فيها للمسجد حتى اللحظة.

كانوا يجلسون في شكل منظم ودائري، ويتوسط الدائرة شاب في العقد الثالث من عمره، وتعجبت كيف يتأتى لهذا الشاب أن يتحكم في هذا العدد من الأطفال وينظمهم في دائرة لا يخرج عنها أحد؟ هل الشاب هو من يمتلك تلك القدرة، أم أنه إحساس الإجلال الذي يغلف الدين، ويعطي كل ما له علاقة بالأديان قدسية تجعلنا نذعن دون أن ندري لماذا؟ أخذت مكاني في الدائرة، كنت على يسار الشيخ، اعتقدت أن الأمر يبدأ وينتهي بمسابقة، غير أن ما حدث كان مختلفاً، بدأ الأمر بآيات من القرآن نقرأها بشكل متتابع، كل منا يقرأ بضع آيات ثم يترك الأمر لمن بجواره ليقرأ، حتى تفرغ الدائرة كلها من القراءة، بعد ذلك أخذ الشاب يقص علينا بعض القصص عن أصحاب هذا النبي الذي ظهر بمكة، وكيف أنهم تحملوا الصعاب من أجل نبيهم ودينهم الجديد، وأنه ما من أحد منهم بخل بماله أو نفسه في سبيل إعلاء هذا الدين. كان الشيخ يتحدث وكأنه يحادث نفسه، لا أظن أن أحدهم يعي ما يقال، أو أن الحاضرين ما جاءوا لأمر غير الجائزة والمسابقة، غير أنني أُعجبت بما قال، هل لاقى الأمر صدى في نفس يعقوب؟ هذا الذي بصق عليه أستاذه ولم يدر أحدهم ما أصابه من اضطهاد، ولم يكترث أحدهم إن كان ظالماً أو مظلوماً، هل شعر بتواصل مع هؤلاء المضطهدين قديماً؟ نحن

نشترك في إحساس واحد، وهو أننا نواجه هؤلاء الصم البكم الذين لا يشعرون.

انتهى الشيخ الصغير من أوراده وأذكاره وقصصه وقرآنه، وأوشكنا على الذهاب، قلت لنفسي: وأين المسابقة؟ غير أنه تابعني بإعلان وقت المسابقة وكأنه سمع ذاك الذي دار في مخيلتي. أطلق الشيخ السؤال، وكنت قد عاهدت نفسي أن ألتزم الصمت، لن أشترك، أو هكذا أوهمت نفسي، فلا تزال نظرة مدرس الدين وبصقته تعلقان بذاكرتي، وهاهي الرعشة بدأت تدب في أطرافي، ودقات قلبي تتزايد وكأني مقدم على قتل أحدهم. حاول أخي دفعي للإجابة إلا أني أبيت. كنت أتابع الشيخ وهو يقلب ناظريه بين الأطفال متلمساً من سيعطي الفرصة للإجابة، بيد أني اعتقدت أني فقط من كنت أتابعهم بشغف. كان أحدهم يجلس بجوار الشيخ يتابعنا هو الآخر، ظل صامتاً طوال الجلسة، وكأنه حضر خصيصاً لينتقي شيئاً ما. كان يقلب عينيه فينا طوال الجلسة، وبين الحين والحين كان يعلق عينيه معي قليلا. لاحظته وهو يلكز الشيخ موجهاً بصره ناحيتي، معلماً إياه أنني صاحب الحق في الإجابة، لاحظت تلك اللفتة السريعة التي لم يلحظها أحد سواي. أشار الشيخ إلى رغم أني لم أشارك الأطفال في رفع يدي مثلهم طالباً الإذن بالإجابة. كان السؤال غير ذي صعوبة فأجبت عنه وكان ذلك إذناً بالحصول على الجائزة. أثارني هذا التشابه في حياة من يقصُّون قصصهم وحيواتهم، فكلنا مضطهدون من هذا المجتمع الجاهل، وشعرت بالقوة وقد دبت في أوصالي من جديد، وتركتني الرعشة وخفّت ضربات القلب، قررت حينها ألا أتركهم، غير أني علمت بعد ذلك أنهم هم من قرروا ألا يتركوني.

هل وجدت فيهم القوة من بعد ضعف، أم أن استمتاعي بإحساس المضطهد جعلني أقرب إليهم؟ منَّا من لا يتلذذ بهذا الشعور؟ شعور الشهيد، البكاء، النحيب، الإحساس أنك أنت وفقط من تدرك بواطن الأمور، والباقون في الجهل سواء، ألهذا السبب أردت أن أكون مع هذا الفصيل، أم أن الخوف من القيادة والتصدر النابع من وقع بصقة أستاذي جعلني أعشق حياة التابع؟ جماعة وشيوخ يتصرفون في كل أمر، وفي النهاية يشعرونك أنك من أحدثت الفارق والتغيير، غير أنك في الحقيقة ما أحدثت شيئاً، هل أحببت نظرة الاهتمام تلك التي صدرت عن هذا الجالس بجوار الشيخ؟ ربما.

كان صاحب تلك النظرة هو المسئول عني لثلاث سنوات قادمة، لم يبدِ أهلي أدنى اعتراض على هذا الاهتمام الذي أولاني إياه من سيصبح شيخي، يكفي أنه رجل متدين ويتّقِ الله من وجهة نظرهم كي يأمنوا على طفلهم بين يديه. أدركت أن الدائرة التي انتظمت في المسجد تتلاشى فور أن نخرج من المسجد مع تلاشي قدسية المكان، فالمسلم في المسجد يكون في حال غير التي يكون فيها خارجه، ولهذا لم يتبق سواي أنا وبضعة أطفال تم اصطفاؤنا لتستمر الدائرة خارج المسجد كنا نجتمع في بيت الشيخ بشكل دوري مرة كل أسبوع، وتلك ما يطلق عليها «الأسرة»، وكانت تلك بدايتي مع جماعة الإخوان المسلمين. لا أنكركم القول، كانت أيام من أرقى وأطهر أيامي، روحانيات، أوراد، أذكار، صلوات وأدعية، ودمعات تتساقط من روعة هذا الإحساس الذي يختلج الصدر وأنت منتصب القامة في صلاة الفجر تستمع لتراتيل القرآن بشغف، أن تجد هذا الطبيب الذي يغسلك من

أدرانك في اليوم خمس مرات، أن تجد هذا القوي الذي تستند إليه في الملمات، أن تؤمن بتلك الغيبيات التي تجعلك على يقين أن فقر الدين وصعوبة العيش إن اصطحبت برضا النفس فهناك خلف الحجب جنة ونعيم ورضا رب كريم. كنا في عالم غير العالم، وبين أناس غير الناس، ونحيا إحساساً اندثر في خارج الدائرة، أو هكذا صور الأمر لنا، لهذا كنت أخشى أن أطرد منها، أو حتى أنظر خارجها.

انتهيت من الصلاة وخرجت من المسجد أنتظر الشيخ وأصدقاء الأسرة أو «إخوتي في الله»، كما نطلق على أنفسنا داخل الدائرة، فدائماً ما يسبق التعريف بالشخص كلمة «أخوك في الله فلان»، حتى يصبح بديلا عن أخيك في الحقيقة، ولهذا نسمى أسرة، فهي الأسرة المنتقاة البديلة عن أسرة الجاهلية خارج الدائرة التي نحياها. أثناء انتظاري وجدت أحدهم يفترش الأرض بالكتب والأشرطة الدينية أمام المسجد، كنت أهوى القراءة فجذبني منظر الكتب. أدرت ناظري في تلك العناوين المعروضة للبيع، حتى وقعت عيناي على كتيب صغير للأطفال بعنوان: «سيرة الإمام الشهيد حسن البنا». اشتريت الكتاب على الفور، وذهبت لشيخي مسرعاً إثر رؤيته لأطلعه على الكتاب الذي يحوي سيرة الإمام الأول لتلك الجماعة. اعتقدت خطأً أنه سيفرح بتلميذه الذي يحمل سيرة الإمام الشهيد حسن البنا، غير أن ما حدث كان العكس تماما، غضب الشيخ وعنّفني، وطلب مني أن أعيد الكتاب وألا أقرأ تلك النوعية من الكتب. كان يتحدث بغلظة وكأن بينه وبين حسن البنا عداوة مسبقة.. ربما لأن الضغط الأمني على التيار الإسلامي عموماً وجماعة الإخوان خصوصاً كان على أشده في تلك المرحلة، خاصة أن الإرهاب قد

استشرى في فترة التسعينيات. بيد أن شيخي لم يرد لطفل أن يعرف مسألة الإخوان تلك الآن حتى لا يكون سبباً في وقوع خطر عليه وأيضاً حتى لا يثرثر هذا الطفل بكلمات أمام أحدهم قد تؤذي الشيخ. كان العمل في تلك الفترة أقرب للعمل السري.

تركت شيخي على اعتبار أني ذاهب لأعيد الكتاب للبائع، إلا أنني لم أمتثل لكلماته. احتفظت بالكتاب على غير علم الشيخ، ومنذ تلك اللحظة أضحت لدي حياتي السرية التي تسير بالتوازي مع الدائرة التي نحيا داخلها، فأنا داخل الدائرة إنسان، وخارج الدائرة إنسان آخر، يحيا عالمه السري الذي يضم كل الممنوعات، كنت متمرداً لا أحب الانصياع في أحيان كثيرة، وفي نفس الوقت كنت أعشق الحالة التي تعتريني داخل الدائرة، تلك الهالة النورانية التي تسمو بنا وتجعلنا ننظر للعالم من أعلى.

عندما قرأت الكتاب وأدركت كم كان حسن البنا، المؤسس الأول للجماعة، نبيلاً وشهماً، وكيف أنه مات في سبيل أن تبقى جماعة الإخوان، عاد لذهني نفس السؤال مرة أخرى: لماذا غضب مني الشيخ وأنا أحمل بين يدي سيرة المؤسس الأول لتلك الجماعة التي تنظم دوائرنا؟

غير أن الإجابة ليست بعيدة المنال، فإلى جانب العمل السري الذي تتميز به الجماعة فإن التربية داخل الإخوان تقوم على التدرج. في البداية تؤصل لديك عقيدة حب الله وحب الإسلام، عشق هذا الدين، ولكنه عشق ينبع داخل دائرة الإخوان وبعين الإخوان. ينشأ الطفل على حب الدين على نفس طريقة الجماعة في حب الدين، ويدين بالفضل

لهؤلاء الذين انتشلوه من الضياع، وفي تلك اللحظة التي تتمازج فيها الدعوتان، دعوة الإسلام ودعوة الإخوان حتى لا ترى فرقاً بينهما تبدأ التكليفات، فتجد نفسك لا إرادياً وأنت تدافع عن الجماعة كأنك تدافع عن الإسلام، وعندما تدافع عن الإسلام فكأنك تدافع عن الجماعة. وبالتالي لا غرابة لما نجده من الشباب الإخواني الذي لا يملّ من تبريء نفسه من تهمة تكفير الآخر؛ لأنه فعلا لا يرى في خطابه نبرة تكفير، ولأنه يظن أن كلاً من الإسلام وخطاب الجماعة منفصلان بينما هما في عقله الباطن خطاب واحد. قد يكفّرك الإخواني ثم ينفي أنه كفّرك لأنه يردّد وفقط، وبما أن القائد لا يخطئ فمن المؤكد أن الخطأ ليس فيمن أطلق لفظة الكفر، إنما الخطأ في الكفار. الإخواني لا يتقبل مجرد أن تقول له إن الجماعة أخطأت، ذلك أن الإسلام والجماعة لا ينفصلان، ولو شعر الإخواني للحظة أن الجماعة أخطأت فسيكون معنى ذلك أن الخطأ والقصور في الدين ذاته. هذا الاعتقاد باحتمالية خطأ الجماعة ـ في حد ذاته ـ هو خطر يخاف منه الإخواني، ويشعر أنه قد يخرجه من دائرة الدين إلى عالم الكفّار. أما أنا فقد خرقت هذا الناموس بمحاولتي قراءة التكليفات من خارج الدائرة وقبل أن يحين الأوان.

مزج المفهومين ـ الدين والجماعة ـ، بالإضافة إلى مفهوم آخر هو الأسرة هو سر بقاء الجماعة حتى هذه اللحظة بعد كل تلك المحن التي مرّت بها، وهو ما جعلها تحتفظ لنفسها بجذور تدبّ في أوصال المجتمع، فالشيوعية تبقى بعد المحن والعلمانية تبقى بعد المحن، غير أنها تيارات نخبوية تبقى بين المثقفين وقلّة متبقية من رجالات الماضي وذرياتهم وفقط.

مفهوم الأسرة هذا لايقل أهمية عن الدمج بين مفهومي الدين والجماعة. إنها تعطيني بديلاًعن أسرتي. الأخوّة في الله أمر مقدّس لدى الجماعة، يدعّمها أن الإخواني إذا رغب في الزواج بحث عن فتاة إخوانية، فهو لا يتزوج من خارج الدائرة ولا هي تفعل ذلك. تزويج الإخوة للأخوات يتيح للإخوان خطة بديلة في حالة أن يفتر إيمان أحدهم أو يقلّ اكتراثه بالدين، هم بذلك يضمنون ولاءه. لو عصى أحدهم فربما يكون من الطبيعي أن يترك المسجد، غير أنه لن يكون طبيعيّاً أن يترك إخوته وزوجته وأسرته، وهم يصبرون عليه ويعملون على إعادته إلى حظيرتهم مرة أخرى، لذلك يكون من الصعب أن تجد منشقين عن الإخوان يمثلون عدداً، هم أفراد قد تحصيهم على أصابع اليد الواحدة، ومعظمهم يترك الجماعة إما في مرحلة البناء قبل أن تتمكن الجماعة وعقيدتها من عقله، أو في مرحلة الهرم ذلك أن خبراته الحياتية تعطيه بديلا عن العقل الذي ضيعته الجماعة مع أهليته المسبقة للتفكير فينشقّ عنهم.

أذكر أحد من كانوا إخوتي في الله داخل صفوف الجماعة وكان ممن انشقوا بالتزامن معي، غير أن مفهوم كل منّا عن الانشقاق كان مختلفاً عن مفهوم الآخر، تركي للجماعة كان فكرياً وصراعاً مع العقل في الأصل، أما ترك أخي هذا للجماعة فكان في الأصل إرضاء للنزوات والشهوة، كان انصياعاً للمعصية. انغرس هذا الشاب في عالم الشهوة من نساء وجنس وغيره لما يقرب من الثلاث سنوات، غير أنه في النهاية عاد، أعاده مفهوم الأسرة والأخوة في الله، ذلك أن بيئته الاجتماعية كلها كانت إخواناً، أما أنا فكنت الإخواني الوحيد ليس

في أسرتي وفقط، بل في عائلتي كلها. أذكر أني قابلت هذا الشاب قبل انتخابات الإعادة لرئاسة الجمهورية ولمست فيه حماسة للدفاع عن الدين ومحمد مرسي وغضباً من موقفي لأني قررت إبطالَ صوتي، وأثناء حديثه تذكرت تلك المرة التي حكى لي فيها عن ليلة حمراء قضاها مع أصدقاء له، حين أحضروا المخدرات والمومسات لشقة أحدهم وتناوبوا ممارسة الجنس معهن حتى حلّ دوره، وعندما وجد نفسه في أحضان إحداهن تتماسّ الشفاه وترتجف الأعضاء من فرط اللذة، وبمجرد أن أضحى بين فخذيها شعر وكأن هناك حائطاً يحيل بينه وبين إكمال متعته، وكأن صوتاً يناديه. فما كان منه إلا أن خرج من مكانه مسرعاً وعاد لحظيرة الأسرة.

سألت نفسي حينها: هل أبى لأن الزنى حرام؟ غير أني ما لبثت أن قلت لنفسي: ولكن المخدرات أيضاً حرام، والقبلات، والتلامس، والارتشاف من جسد الفتاة، كل ذلك في مقام الزنى وإن لم يحدث إيلاج للأعضاء، غير أن هذا الأمر لا يسطر في بضعة أسطر، سأترك فصلاً كاملاً للحديث عن الأمر، عن الجنس والإخوان، ولا تندهشوا، فهذا صراع في حياتي كان أشد من صراع العقل، وكان له الدور الرئيسي في تركي لهذا الدين الجديد، دين الإخوان المسلمين.

كفر غطاطي

وكأني أنظر إلى أبي الآن مهاجراً من قريته النائية بمحافظة بني سويف شادّاً رحاله إلى القاهرة. يرجو أن يجد فيها الحياة الأخرى التي فقدها في قريته. أتلمس خوفه من القادم. أستشعر رهبته على أبنائه وزوجته وهو الشاب الصغير في وطن لا أرض ولا عائلة ولا مال فيه. لا يملك سوى إيمانه بالله ثم نفسه. إنه سيكون يوماً أو يكون أحد أبنائه ما فقده في تلك الأرض البعيدة. أتذكر يده الحانية على رأسي حينما كنت أقرأ له بعض كلماتي التي أسطرها في وريقاتي. وأذكر كلماته حين يقول: إنت لازم تكون كاتب كبير. إلا أني كنت أظن أن هذا حلم يراود أبي ولا علاقة له بالحقيقة. فأبي الموظف بهيئة النقل العام الذي بالكاد يكفي أسرته قوت يومها لا يدرك أن الأمر جدّ صعب. وأن الحياة لا تلقي بظلال قسوتها إلا على البسطاء من ساكنيها. وأعود فأذكر وأذكر. وأحكي لنفسي ومن ثم أسطر. لأكتشف في النهاية أن كلماتي كانت تجد صداها لدى أبي لأنه كان يتلمس فيها معاناته.

قرار هجرة أبي من قريته بمحافظة بني سويف في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي كان من الصعب اتخاذه. تلك القرية التي شهدت بدايته وعلى أرضها تعيش عائلته التي يمتد جذرها إلى مائتي

عام مضت. إلا أن ضيق الحال دفعه إلى ذلك. فليبحث عن ملاذ في أرض أخرى. وكان الاختيار هو النزوح إلى القاهرة.

ومن قرية إلى قرية كان السبيل. ترك أبي قريته في محافظة بني سويف ليضع رحاله في قرية أخرى هي قرية كفر غطاطي بمحافظة الجيزة، والتي شهدت مولدي في العام 1985. وهي أيضاً التي شهدت صراعاً امتدّ داخلي لأكثر من 15 عاماً بين تراثها الفكري وتمرّدي على راديكاليته وأصوليته المتجذرة في عقول أبناء القرية.

في غرفة صغيرة استأجرها أبي من إحدي عائلات كفر غطاطي كان مولدي. لم يكن قد مر عام على الحياة الجديدة لأسرتي. ولم يكن أبي قد استقر في عمل دائم بعد. هو يتنقل من عمل إلى آخر. وكانت كلها في إطار أعمال «الفواعلية»، كما يطلق على عمّال المعمار من حفر وبناء وحمل مواد البناء متنقلين بها في مواقع الإنشاء، وهو عمل ليس بالدائم. يخرج صباحاً ويذهب إلى مكان يتجمع فيه زملاء المهنة الشاقة وينتظرون الفرج. أن يأتي صاحب حاجة ليصطحب معه بعض العمال وهكذا كل ليلة. لكن تلك المهنة لم تكن هي السبيل الآمن لأسرة من أب وأم وثلاثة أبناء في أرض لا عائلة ولا ظهير لهم فيها. كان أبي قد قرر أن يطرق أبواب الوظائف الحكومية قبل ولادتي ببضعة أشهر، فالتحق للتدريب بوظيفة سائق بهيئة النقل العام. لكن التدريب طال ومرت ستة أشهر دون أن يتم قبول أبي في الوظيفة لأنه دائماً ما يفشل في الاختبارات المطلوبة. حتى جاء موعد ولادتي الذي تزامن مع قبول أبي في الوظيفة. لهذا كنت أقرب أبنائه إلى قلبه. كان لديه اعتقاد أنني سر سعادة لتلك الأسرة البسيطة.

بمرور الوقت انتقلنا من الغرفة إلى منزل آخر مستأجر أكثر رحابة. وبعد خمس سنوات من العناء امتلك أبي قطعة أرض صغيرة وأقام عليها منزلنا بقرية كفر غطاطي. نعم كان منزلاً صغيراً يتكوّن من غرفة واحدة أيضاً لكنه كان علامة من علامات النجاح لأبي فهو لم يفشل في رحلته إلى القاهرة وأصبح من أصحاب الأملاك. في تلك اللحظة صارت القرية وطناً. وتأكد أننا نرمي بذرة عائلة جديدة هي عائلة الشيخ فايز.

عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية دفعني الفضول للبحث في تاريخ كفر غطاطي. إلا أن رحلتي باءت بالفشل. فلم أجد لها ذكراً في كتاب «الخطط التوفيقية» لعلي باشا مبارك، وهو كتاب مكون من عشرين جزءاً يصف بالتفصيل مدن مصر وقراها من أقدم العصور إلى الوقت الذي اندثرت فيه أو ظلت قائمة حتى عصره. في خطط علي باشا عثرت فقط على مركز كرداسة، والذي يحد قريتي من الشمال وإليه تمتد جذور معظم عائلات القرية تقريباً. وكنت أندهش كيف لم يذكرها علي باشا في خططه على الرغم من أن أقدم قاطنيها وهو الحاج غطاطي الكبير، والذي سميت القرية باسمه، عاش فيها منذ قرنين من الزمان كما يردّد أهلها.

إن كان علي باشا مبارك قد نسي قريتنا في خططه فلن أنساها أنا. هي قرية ليست في حاجة لوسيلة نقل للتحرك في شوارعها. أنت لا تحتاج لأكثر من ربع ساعة كي تجوب القرية من أولها إلى آخرها سائراً على قدميك. لو رأيتها من الأعلى ستكتشف أنها على شكل دائرة محاطة بالأرض المزروعة من كل الجوانب. كان يخترق تلك الخضرة

شارعان فقط لدخول أهل القرية وخروجهم منها حتى قامت الثورة المصرية في العام 2011 عندما قام أهل القرية عنوة بفتح شارع ثالث يخترق أرضاً تملكها وزارة الزراعة. التعداد السكاني لكفر غطاطي في أغلب التقديرات 20 ألف نسمة.

معظم أهل القرية من الفلاحين والعمال البسطاء. بدأ رغد الحياة يظهر على سكانها منذ بضع سنوات فقط مع الارتفاع الهائل في ثمن الأرض وتوغل البناء على الأراضي الزراعية. أما فيما يخص الإيديولوجية التي تتحكم في معتقداتهم فتلك هي الحكاية والقصة التي أدور حولها.

كانت كفر غطاطي حتى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي قرية مصرية خالصة. مع ظهور ما عرف بـ «الصحوة الإسلامية» في نهاية السبعينيات بدأت الملامح تتغير. وبدأ شباب القرية ممن توفّرت لهم فرص الخروج منها لتحصيل العلم في الجامعة بإدخال أفكار الجماعات التي تبنّت الصحوة الإسلامية تلك وكأن مصر لم تكن تعرف الإسلام من قبل! بدأت تظهر على سطح القرية أفكار جماعات «التبليغ والدعوة والجمعية الشرعية والسلفية التقليدية وجماعة الإخوان المسلمين». بيد أن تلك الجماعات لم تكن بنفس قوة انتشار جماعة الإخوان. ولا أعرف سبباً لذلك سوى أن تلك الجماعات تركز أهدافها في الدين والدعوة وفقط، وبالتالي ليس مطلوباً منها دور تنظيمي توحّد له الصفوف وتظهر قوتها على السطح وذلك على عكس جماعة الإخوان المسلمين التي أفصحت عن رغباتها السياسية فوراً بشعارها الأشهر «الإسلام هو الحل» متخذينه كبرنامج إصلاحي لحكم مصر.

ظهر الإخوان في قريتنا بمجموعة أقل من عشرة شباب وكان يرأسهم الدكتور حامد السيد. وهو أول من أدخل فكر الإخوان للقرية عندما كان طالباً بكلية الطب البيطري بجامعة القاهرة. وظل يعمل بجهد حتى أصبح بإشارة من يده قادراً على حشد وتحريك بضعة آلاف يهزون أرجاء القرية في أي فعالية تدعو لها جماعة الإخوان. كما كان على رأس رجال أسرته الإخوانية الأولى يتصدرون الصفوف في فعاليات الإخوان خارج القرية أيضاً. أما بقية مجموعته فلا يكاد حظّهم من التعليم يتجاوز التعليم المتوسط، إلا أنهم مع ذلك تمكنوا بمساعدة الدكتور حامد من تأسيس إمبراطورية للإخوان بقرية كفر غطاطي.

في العام 2005 تم ترشيح الدكتور حامد السيد لانتخابات مجلس الشعب، وكانت منافسة شرسة مع نظام الحزب الوطني ووصل فيها لمرحلة الإعادة مع مرشح الحزب الوطني وتم تغيير النتيجة لصالح مرشح الحزب الحاكم بكل بساطة حتى بعد أن خرج القاضي من لجنة الفرز وأعلن فوز الدكتور حامد بمقعد المجلس في تلك الدائرة. الدكتور حامد لم يعش طويلاً بعد تلك الانتخابات. وافته المنية بسبب سوء حالته الصحية الناتج عن التعذيب وسوء المعاملة الذي لاقاه من ضباط أمن الدولة الذين احتجزوه بعد انتهاء الانتخابات جرّاء فعلته التي اعتبروها شنيعة؛ لأنه وقف أمام مرشح الحزب الحاكم. ومع الوضع في الاعتبار أنه كان مريضاً فكان الاعتقال أدعى لتعجيل وفاته.

ساعد على انتشار الإخوان وتوغّلهم في القرية عدة مسائل تعتمد كلها على التواجد الدائم وتصدّر المشهد. ليس بالضرورة أن يقدموا حلولاً، المهم أن يراهم العامة!. فمنذ أكثر من عشرين عاماً وجماعة

الإخوان هي التي تقوم على تجهيزات صلوات العيد للمسلمين؛ من إعداد لساحات الصلاة للمصلين وتنظيم الحضور، وتوزيع الهدايا على الأطفال... إلخ. وفيما يخص مناسبة كالزواج قامت الجماعة بتكوين فرقة فنية من شبابها تستخدم الدف والإنشاد في إقامة الأفراح لأعضاء الجماعة دون مقابل. وفي الملمات كان أهل القرية يجدون الإخوان في مقدمة الصورة يواسون الناس في أحزانهم. بالإضافة إلى يوم أسبوعي دائم، ويقام بشكل أسبوعي حتى الآن يجتمع فيه الشباب من داخل تنظيم الإخوان ومن خارجه أيضاً لممارسة الرياضة. يجتمعون بعد صلاة الفجر ويتوجهون إلى مكان مفتوح يمارسون فيه ألعابهم الرياضية. إلى جانب ذلك لم يكن أعضاء جماعة الإخوان في القرية يفوتون مناسبة إلا ويحدث إسقاط في حديثهم عن أن سبب تردي أوضاع المسلمين هو ابتعاد الناس عن دينهم وربهم ملوّحين لهم أن الأمل والحل في الإسلام وأنه لو طبق ستزول كل أحزانهم.

ونظراً لهذا التعداد الكبير لجماعة الإخوان في قريتي فكنت أراها تتصدر المشهد في أي تنظيم أو فعالية يدعو لها الإخوان. مثلاً في انتخابات مجلس الشعب في العام 2011 كانت جماعة الإخوان تنظم مسيرات لمرشحيها في أرجاء الدائرة المختلفة، وفي إحدى المرات شاهدت مسيرة حاشدة لمرشح الإخوان في منطقة أبو رواش، وكان جلها من إخوان قرية كفر غطاطي. وخلال ثورة يناير كان المئات من جماعة الإخوان يتواجدون في الميدان. إلا أنهم لم يظهروا إلا فجر يوم الاثنين 31 يناير. ولم يكونوا فاعلين في المسيرات والتظاهرات بشكل جماعي. كان لهم مكان معروف يتجمعون فيه بجوار مسجد

عمر مكرم. وقد ظهروا بقوة في موقعة الجمل يوم الأربعاء 2 فبراير وأصيب منهم العشرات.

لم تظهر إيديولوجيات أخرى بجوار الإيديولوجية الدينية في القرية. وإن كانت هناك محاولات لبعض الشباب إلا أنها كانت محاولات فردية وباءت جميعها بالفشل. إلا أن الموقف قد تغير تماماً بعد ثورة يناير 2011 وأضحى في القرية تنظيمات سياسية مغايرة يتبع بعضها حزب «الدستور» للدكتور البرادعي وتتبع أخرى «التيار الشعبي» لحمدين صباحي وهناك مقر لحزب «مصر القوية» للدكتور عبد المنعم أبو الفتوح. إلا أن تنظيم الإخوان يظل الأقوى مع الوضع في الاعتبار الطبيعة المحافظة في القرى والتي تميل للتدين أكثر وترفض التجديد حتى لو كان في الفقه الديني نفسه!

وبعد ثورة يناير أيضاً اتسعت دائرة أصدقائي داخل القرية بحكم مشاركتي السياسية في التنظيمات المختلفة. فلم أكن أحصر نفسي في تنظيم معين. كان هدفي الأساسي دائماً أن أرى تنظيمات جديدة ومختلفة تعمل لصالح القرية عكس التنظيمات الأصولية التي لا تبحث سوى عن أفكار عفا عليها الزمن متناسية تلك السرعة الهائلة التي يسير بها العالم ومتناسية أيضا حال هؤلاء الناس الذين هم في أشد الحاجة لعالم أفضل في الملبس والمأكل والسكن. إلا أنني وفي مقابل من كسبتهم من الأصدقاء من تلك التيارات خسرت العشرات بل المئات من أصدقائي داخل الإخوان بسبب رفضهم لكتابتي عنهم وترويجهم أنني أصبحت في الزمرة الفاسدة التي تسعى لهدم الدين!

المكان دائماً ما يكون المسجد، وفي حالتي أنا كان المسجد على أطراف قريتي الصغيرة التابعة لمركز كرداسة، وهو نفس المسجد الذي كان يلقي فيه الإمام محمد متولي الشعراوي دروسة الدينية عندما كان يتواجد بالقاهرة، الزمان منذ اثنتي عشرة سنة، الحدث هو مقرأة القرآن التي لازمتها خمس سنوات متتالية، انتهى موعد المقرأة وغادر الأصدقاء وظللت أنا كعادتي أتأمل. كنت في تلك الأيام أقضي يومي بأكمله في المسجد لا أغادره إلا بعد إغلاق أبوابه بعد صلاة العشاء. كان قد مضى عام على حالتي تلك. وكان أبي سعيداً بأصغر أبنائه المتدين، وكان رواد المسجد أسعد بطالب الثانوي الذي غادر الدنيا ليحيا في كنف الله، غير أنهم أخطأوا الرؤية، وعجزت بصيرتهم عن تلمّس كوني أغزل أولى حلقات الترك.

شخص واحد أدرك معضلتي هو محفّظ القرآن بالمسجد. ذلك الشيخ الذي استطاع أن يروّضني لفترة ليست بالقصيرة واستطاع أن يجعلني أبدأ الحفظ بالسور الكبرى في المصحف على العكس من تلك الفترة التي كنت أحفظ فيها على يد أحد شيوخ جماعة التبليغ والدعوة وأنا في التاسعة من عمري، والذي لم يتمكن من جعلي أتخطى حاجز

الجزء الثلاثين من المصحف بسوره الصغيرة وطريقة تحفيظه الأقرب إلى الصراخ والعويل منها إلى العبادة والتقرب للإله بقرآنه، فهو يجمعنا في حلقة ومن ثم نبدأ في ترديد الآيات بصوت مرتفع، وكلما زاد ارتفاع الصوت كلما اعتقد شيخ التبليغ والدعوة أننا سنحفظ أفضل!

بيد أن شيخ المسجد وليكن اسمه عبد الرحمن، تعجّب كيف لي أن أحفظ سورة البقرة وآل عمران والنساء في ثلاثة أشهر، ثم أظل في سورة المائدة عاماً كاملاً أطرح عليه التساؤلات، ما الذي حدث؟!

انتظر الشيخ عبد الرحمن انتهاء المقرأة وذهاب الجميع وسألني: ما الذي ألم بك؟ بيد أني لم أكن أعي حينها. كنت لا زلت عبداً لدين الإخوان، والعبد ليس له إحساس أو شعور يعبر عنه، وهو غير أهل لأن ينتقد ويفكر، إلا أن السؤال عرف نوعاً ما تلك الحالة الغريبة التي اعترتني مؤخراً، نعم هناك أمر جلل. تركت المحفّظ وتوجّهت إلى القبلة، صلّيت، اعتدلت إثر الصلاة ودعوت، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، وبكيت، بكاءً هستيرياً لم يعترِني من قبل، والأعجب أنه لم يعترِني من بعد.

❊ ❊ ❊

يحيى عياش، هو طالب كلية الهندسة الفلسطيني، الذي طور أسلوب مهاجمة جديد مكن كتائب عز الدين القسام من قتل اليهود داخل دوائرهم الآمنة. إنها العمليات الانتحارية أو ما اصطلح العرب والمسلمون عموماً على تسميتها بـ«العمليات الاستشهادية». استغل يحيى عياش دراسته في كلية الهندسة ـ وتفوقه في هذا المجال ـ في

صنع عبوات متفجرة من أدوات محلية تمكن المجاهدين من مواجهة اليهود وكان عمره حينها 21 سنة، وفي العام 1996 تمكن الصهاينة من قتله بعد تعقب دام أعوامًا عن طريق زرع قنبلة تزن 50 جراماً في هاتفه المحمول، ردت كتائب عز الدين القسام على حادثة اغتيال المهندس يحيى عياش بعمليات مضادة أودت بحياة 70 إسرائيلياً وأكثر من 400 مصاب.

تلك المعلومات التي أسطرها وأنا ابن الـ 27 عاماً كنت أحفظها عن ظهر قلب وأنا في الصف الخامس الابتدائي.

دائماً كان يتم التأكيد في جلساتنا الدينية على دور الشباب في الدولة الإسلامية، وكيف أن المسلمين كانوا يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم وهو ابن الحادية عشرة، يقوم بذلك معرضاً نفسه للقتل أو التعذيب وكل هذا دفاعاً عن هذا الدين الناشئ حديثاً. وكيف أن الإمام عليّ بن أبي طالب أسلم وهو في السابعة من عمره، وأن عمر بن الخطاب شيب مكة وصدح بإسلامه في ربوعها وهو في السادسة والعشرين من عمره، وأن الشاب مصعب بن عمير ترك رغد الدنيا ونعيمها ليعيش في كنف الإسلام، وأن أسامة بن زيد قاد جيشاً وهو في الخامسة عشر من عمره. كنت وأنا في الثانية عشر من عمري، لا أقرأ سوى بلال بن رباح والحجر الذي وضع على صدره من أجل أن يترك هذا الدين، إلا أنه لم يكن ينطق سوى بـ«أحد أحد». كنا نسمع في كل جلساتنا الدينية عن غزوات الرسول: بدر، أحد، الخندق، فتح مكة، حنين، مؤتة، تبوك،.. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

كانت حياتي ومدخلاتي تدور بين مكة والمسجد الأقصى وفقط، وتقمص النظام وأهل مصر دور المنافقين الذين يحاربون من يسعون لإقامة دولة الخلافة وإعادة فلسطين المحتلة.

علي بن أبي طالب هذا الفارس الذي فتح الله به خيبر، بعد أن عجز المسلمون عن اقتحام حصون خيبر اليهودية. كبر الإمام علي بن أبي طالب وصدح بقولة الله أكبر، ونتج عن تقدمه بخيله لحصون خيبر غبار كثيف عجز المسلمون خلاله عن تحري معالمه، وإذا بهم فجأة يرون الإمام علياًّ وقد اقتلع أحد أبواب الحصن ليجعله درعا يحارب به أعداء الله.

هذا المجاهد الأبي البراء بن مالك، الذي تغلب على حصون الأعداء في إحدى المعارك بأن طلب من الصحابة أن يضعوه على «منجنيق» ويلقوه داخل الحصن ليفتح لهم الباب وقد كان، غير أنه كان قد أصيب بأكثر من ثمانين ضربة. كان الخليفة عمر بن الخطاب يخشى أن يوليه على جيش لتهوره الشديد، وكانت إذا احتدمت المعركة وهان الصف نودي على البراء أن أشعل الحماسة من جديد في صفوف المجاهدين، كان شهيداً يمشي على الأرض، فالدنيا لا تساوي لديه الكثير.

القعقاع بن عمرو التميمي، قال عنه أبو بكر الصديق: لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل. حمزة بن عبد المطلب، الذي صفع «أبا جهل» عبد الحكم بن هشام في مكة وبين أتباعه وفي عز جبروت كفار قريش ولم يقو أحدهم على رد الصفعة. البوسنة والهرسك، وسراييفو، وكوسوفا، والشيشان، وأفغانستان، وباكستان،

بورما، وكشمير، والعراق، وفلسطين (غزة، رام الله، نابلس، بيت لحم، جنين، القدس). عز الدين القسام، أحمد ياسين، الملا عمر، أسامة بن لادن، أيمن الظواهري، واي بلانتيشن، واي ريفر، خارطة الطريق.

كل هذا كنت أحفظه عن ظهر قلب وأنا في الثالثة عشر من عمري، إلا أني - وفي نفس العام - عرفت بالصدفة البحتة أن هناك رجلاً مصريّاً مرشحاً للحصول على جائزة نوبل اسمه أحمد زويل.

* * *

أتت الأخبار في نهاية العام 2000، وكنت حينها في الخامسة عشر من عمري، أن شيخ الأزهر سيد طنطاوي أفتى بأن من يفجر نفسه منتحر وليس شهيداً وهو في النار، احمر وجهي وتملكني الغضب وودت لو أفجر نفسي فيه ليعلم إن كان من يفجر نفسه في الصهاينة شهيداً أم منتحراً. صدر الأمر لكل دوائر الإخوان بأن يصلوا الجمعة في الجامع الأزهر، ستكون تظاهرة لنصرة إخواننا المجاهدين في غزة ضد وهن النظام في حمايتهم. كانت المظاهرة الأولى التي أشترك فيها. لم تكن من أجل الفقر ولا الجهل ولا المرض المتفشّي في مصر؛ لأن هذا الأمر لم يكن يعني مسئولي الأسر داخل الجماعة ولا الجماعة نفسها. أو ربما بسبب الضغوط الأمنية التي كانت تجعلهم يتغاضون عن الحديث في مثل تلك الأمور تفاديا لتصعيد الصراع مع النظام.

كانت الدعوة للتظاهر من أجل فتوى ضد مجاهدي دولة أخرى. فتوى صادرة من أكبر رمز ديني مصري، بل ورمز إسلامي في العالم أجمع. إنه شيخ الأزهر. كنت حتى اللحظة أعتقد أن كل من صلى

وزكى وصام وقام الليل هو من الناجين من النار، وأنه لا غبار عليهم، كيف به وهو رأس الأمر في العالم الإسلامي؟ كانت صدمة لما تربّيت عليه. أنا أعلم أن من هم خارج الإخوان إما عملاء لأمن الدولة أو علمانيون يسعون لفصل الأرض عن السماء، ونشر الإباحية والشذوذ، لكني لم أكن أعلم أن هناك صنفاً آخر، مع الوضع في الاعتبار أنه من زمرة المسلمين. وبجانب أنها كانت صدمة فقد كان صداماً أيضاً، صداماً مع أهلي في المنزل، لم أترجم هذا الخوف الشديد الذي ألم بهم حينها. تهيأت للخروج للتظاهرة وأخبرت أمي وأخي الأكبر بكل عفوية ـ وكأني ذاهب لأمر حياتيّ يفعله الجميع ـ بأني ذاهب لتظاهرة ضد النظام الحاكم تضامناً مع مجاهدي فلسطين، بيد أني وجدت أمي تصرخ في وجهي، وأخي الأكبر يقبض على يدي مانعاً إياي من إكمال سيري.

تعجبت من تلك المسألة، فأنا ذاهب مع الزمرة الطيبة أهل الجنة لمواجهة أهل الكفر والإلحاد، وأهلي حتى تلك اللحظة كنت أظنهم أهل جنة، ما لهم يمنعونني مشاركة إخوتي في أمر طيب؟ أصررت على الخروج، واندهشت أمي من إصراري، فتحول صراخها إلى بكاء واستعطاف ألا أخرج، وتحولت يد أخي القابضة على معصمي إلى يد حانية تخبرني بأنهم يخافون عليّ من الأذى. زادت دهشتي، إنها مظاهرة، لم أخبرهم أنني ذاهب لأرض الجهاد وقد أقتل، وحتى إن قتلت فيجب أن يعينوني على نفسي. هكذا تعلمت في مدارس الإخوان، أن أرواحنا أهون شيء نقدمه للإسلام، يجب أن تكون النية دائماً من أجل الإسلام ولله. لما اشتد بكاء أمي واستعطاف أخي الأكبر صرخت

صرخة مدويّة في وجهيهما، أعلنت فيها رفضي تلك الوصاية وأنني سأخرج حتى لو في الأمر قتلي، وساد الصمت المكان، فطفل الأمس أصبح رجلاً يصرخ، ويتحدث عن الموت وكأنه أمر هين. لما أدرك الجميع أنني ذاهب لا محالة اشترطت أمي أن يصحبني أخي الأكبر في تلك التظاهرة، وتعجبت من هذا الطلب، هي تخشى أن يصيبني ضرر ولا تخشى على أخي الأكبر أن يصيبه نفس الضرر!، خمنت أن وجود أخي ليكون مانعاً لي من أن أتمادى في التظاهر، فعندما يحمى الوطيس لن يكون عليه سوى أن يحملني عنوة بعيداً عن الأمر.

حملتنا سيارات من قرية كفر غطاطي التي أسكنها التابعة لمركز كرداسة وتوجهت بنا إلى الجامع الأزهر وكانت تلك هي المرة الأولى التي أصلي فيها في الجامع الأزهر ذي التاريخ العريق من النضال ضد المستعمر، وها نحن نجدد هذا التاريخ ولكن ضد الدولة الكافرة.

فوجئت كما فوجئ الجميع أن خطيب الجمعة هو نفسه شيخ الأزهر سيد طنطاوي، كيف جرؤ على أن يحضر إلى هنا؟ صعد المنبر في خطوات مرتعشة وأبدى ابتسامة ليس لها معالم وأخذ يخطب فينا، إلا أني لم أذكر من خطبته العصماء سوى كلمات قليلة تلك التي اختتم بها خطبته، قال الشيخ: إن من يفجر نفسه في فلسطين شهيد شهيد شهيد، وأخذ يرددها بحماسة شديدة وانتفض على إثرها المسجد مردداً: الله أكبر. صلينا ركعتي الجمعة وقبل أن ينتهي الإمام من التسليم علت الهتافات واهتزت جدران الجامع الأزهر من قوة الهتاف. نشوة غريبة اعترتني حينها، كان القلب ينتفض مع كل هتاف، قمت لأمسك بيد أخي لنشترك سوياً في التظاهرة، غير أني لم أجده بجواري. كان أخي

قد انتفض كالصقر منضماً للحشود هاتفاً بكل قوة: خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود.

تملكني الخوف على أخي وقبضت على يده حتى لا نفترق وسط تلك الأمواج الهادرة من المتظاهرين، وبدلاً من أن يحميني أخي الأكبر من اندفاعي حميته أنا، غير أن هناك أمراً آخر أثار دهشتي، ذلك الرجل الذي كان يجلس على يساري ويحمل صورة جمال عبد الناصر. لم أكن أجد في أدبيات الإخوان ما يدل على أن عبد الناصر مسلم، هو كافر زنديق حارب الدين وحارب من يطالبون بتطبيق شرع الله، إذن، فلم ترفع صورته في المسجد؟. الأدهى أنه وفور انتهاء الصلاة وجدت المتظاهرين وقد انقسموا إلى فرقتين بمظاهرتين وهتافات مختلفة، وكان الفريق الآخر يحمل صوراً لعبد الناصر، سألت نفسي حينها: وهل يوجد مجاهدون في هذا الكون غيرنا؟، إضافة إلى السؤال الذي شغلني حيناً ألا وهو: ما علاقه هؤلاء المجاهدين بهذا الزنديق؟

بعد تلك الحادثة تبدلت نظرتي للأمور، وتبدلت نظرة أهلي لهذا الذي كان بالأمس طفلاً. علم أبي في المساء بعد أن عاد من عمله بما كان مني، بمجرد أن أخبرته أمي ذهب إلى مكتبتي الصغيرة وأخذ يقلب فيها وأخرج ما يقارب الثلاثين كتاباً كلها تتحدث عن الإخوان والجهاد وفلسطين وطلب مني إحراقها أمامه، وألا أعاود الاتصال بجماعة الإخوان مجدداً. تعجبت من موقف أبي الذي تبدل هكذا فجأة، كان بالأمس سعيداً بأصغر أبنائه المتدين، ولم يكن يعقب على تواجدي داخل صفوف جماعة الإخوان، غير أن الأمر اختلف، ذلك أنه أخبرني حينها أن صديقاً له في العمل كان عضواً في الجماعات الإسلامية أخذه

زوار الفجر من منزله، وقد مرت بضعة أشهر ولا يعرف عنه شيء. كنت أسمع في حلقات الإخوان وأقرأ في كتبهم عن زوار الفجر هؤلاء، لكن كانت تلك هي المرة الأولى التي ألمسها في أحدهم، وكان هذا الشخص صديق أبي من المقربين إلى قلبي، إلا أني لم أهتم بما طلبه أبي، وأخذت أحدثه عن الجهاد والشهادة والقضية، والموت في سبيل الإسلام. وتعجب أبي من كوني أرد عليه الكلمة بكلمة، بيد أن أبي لم يكن ليّن الجانب مثل الآخرين، كان عنيفاً جداً، وكان لا يتورع بضرب من يغضبه بأي شيء تطاله يداه، وبمجرد أن خالفته علت أمارات الخوف كل من بالمنزل، فأبي عندما يهم بضرب أحدنا لا يفرق، فهو يجعل الليلة سوداء على رءوس الجميع، غير أنه وعلى عكس المتوقع لم يحرك ساكناً، كنت المقرب إلى قلبه، كنت أحب أبنائه إليه، لهذا تركني وذهب، لكن ليته ما تركني، ليته صفعني بشدة لأرجع عن هذا الطريق.

الحشد هو الحل

رغم صغر قريتي وهامشيتها إلا أن جماعة الإخوان لها فيها من الأتباع بـالآلاف. وفي كل حشد تقريباً ستجد شباب تلك القرية يتصدرون المشهد حتى في ثورة يناير 2011. لدرجة أنني ظننت أن الإخوان يعيشون في قريتي وفقط!

كان الحشد هذه المرة مختلفاً. تم حشدنا لحضور عقد قران ابن عصام العريان على ابنة الشيخ محمد الراوي في العام 2002، لم أكن أعلم حينها ما علاقة القضية التي تربينا على الجهاد من أجلها بزواج ابن عصام العريان. كنت أجلس أثناء عقد القران كالحمار؛ فأنا لا أعلم من سيتزوج من، لست قريباً للعروس ولا من أصدقاء العريس، ولست مدعواً من أحد الطرفين، كنت أعلم أنه من الجائز أن يحشدنا الإخوان لتظاهرة في الجامع الأزهر، لحضور مؤتمر بنقابة الأطباء عن القتل الدائر في فلسطين والذي لا تتورع عنه الآلة العسكرية الإسرائيلية، لكن أن نحشد لحضور ليلة زفاف! كان الأمر بالنسبة لي غير متقبل عقلياً.

زاد الطين بلة أنه وبعد انتهاء عقد القران وأثناء خروجنا من المسجد

لاحظت صفاً طويلاً يقف فيه شباب الإخوان من قريتي كأنهم يستعدون لمصافحة أحدهم، ذهبت لأستفسر فقال لي صديقي إنه المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين الحاج مصطفى مشهور. وقفت في الصف حتى أرى هذا الذي نحارب تحت رايته، وكلما اقترب لمحت أمراً غريباً ذلك أن الشباب كانوا يقبلون يديه بورع وخشوع يعلو الوجوه ـ جميعهم بلا استثناء ـ حتى جاء الدور عليّ في المصافحة فوجدتني لا إرادياً أقبل يديه أنا الآخر، وضربني شعور حينها كمن ألقيته من أعلى ناطحة سحاب. أنا لا أعرف هذا الشخص، ولم أقابله أبداً، كل علاقتي به أنني فرد لا يزال في طور النشأة والتكوين في جماعته. ما ساءني أكثر في تلك المسألة أنني قبّلت يديه لا إرادياً دون تفكير وتردد، كنت أجد أنني أوشكت أن أصير آلة يحركها أحدهم كلما أراد لها الحراك، ويوقفها كلما أراد لها أن تقف.

على النقيض من ذلك، في أحداث محمد محمود في شهر نوفمبر من العام 2011 كمثال: رفض الإخوان أن يحشدوا أو حتى يشاركوا في تظاهرات التحرير التي خرجت نصرة لأهالي الشهداء ممن سحلتهم قوات الأمن في التحرير، ولم يحركوا ساكناً أمام تلك الجثث التي تساقطت من العنف الوحشي الذي مورس قِبَل أصحابها، بل وخرج علينا الإخوان وشبابهم قائلين: إن هذا الأمر يراد به تعطيل انتخابات مجلس الشعب، وإعطاء الضوء الأخضر للمجلس العسكري لأن ينقلب على الشرعية ويفرض الأحكام العرفية ليستقر له حكم البلاد، ورأينا عشرات الآلاف من شباب الإخوان يقرون موقف جماعتهم وينعتون من بالتحرير بالبلطجة وإثارة الشغب. أنا شخصياً نالني منهم

الأذى، ذلك أنني عندما عدت من التحرير إلى قريتي قابلني بعض شباب الإخوان بالسخط وقالوا إني جاهل يحركني أعداء الوطن الذين يريدون جر الإخوان لمذبحة لن يسلم منها أحد.

وفجأة وبقدرة قادر كان الإخوان من أوائل من تواجد في التحرير بعد صدور الحكم على مساعدي العادلي بالبراءة من تهمة قتل الشهداء والادعاء بأنه ما من أدلة تثبت أن الداخلية هي التي قتلت الشهداء. وثار الإخوان وثار شبابهم واعتصموا مع الثوار ما يقرب من الخمسة أيام في الميدان علماً بأن انتخابات الرئاسة على الأبواب، وخرج أيضاً شباب الإخوان ليبرروا الموقف الحكيم لجماعتهم، وكيف أنهم أدركوا عين الحقيقة. قلت لنفسي إنه وفي المرة الأولى: خرجنا من أجل الشهداء ولم يخرج الإخوان، وفي المرة الثانية: خرجنا أيضاً من أجل الشهداء ولكن خرج معنا الإخوان. في المرة الأولى: كانت هناك انتخابات، وفي المرة الثانية: كانت هناك انتخابات أيضاً. خشي الإخوان في المرة الأولى أن يعودوا للميدان حتى لا يتخذها المجلس العسكري ذريعة للانقلاب على الثورة، لكن عادوا للميدان في المرة الثانية ولم يخشوا من إعطاء تلك الذريعة للمجلس العسكري، أي أنهم بذلك ضربوا بأسباب عدم نزولهم في أحداث محمد محمود عرض الحائط، غير أنه في المرة الأولى كان موقف الإخوان قوياً في انتخابات مجلس الشعب فخشوا من ضياع المنصب، في المرة الثانية كان موقف الإخوان في أسوأ أحواله فتذكروا دم الشهداء، وأدركوا أنه خطاب أكبر تأثيراً من خطاب «الإسلام هو الحل» الذي فشل بجدارة في استقطاب البسطاء ولم يحقق سوى نتيجة 24 % في انتخابات الرئاسة. قيسوا على ذلك

تعامل شباب الإخوان مع قرار الجماعة بعدم الترشح للرئاسة، وتعامل الشباب مع قرار الجماعة بعد بضعة أشهر فقط بالعدول عن قرارها السابق والترشح للرئاسة.

أذكر أن من دفعني للتوقيع للبرادعي أثناء حملة جمع التوقيعات في العام 2010 كان شاباً إخوانياً، اليوم وفي 2012 تغير الخطاب وأضحى البرادعي في نظر الإخوان لا يصلح، عميل لأمريكا، السبب في ضياع العراق، جاء من أجل السلطة وليس من أجل مصر. وخرج علينا أحد شيوخ السلفية وقال إن البرادعي جاء لتطبيق «الليبرالية»، وترجم الليبرالية بأنها دعوى لأن تسير أمهاتنا في الشوارع دون حجاب وأن نبيح الشذوذ، فسألت نفسي: أو لم يكن التيار الإسلامي على علم بأنهم يساندون زنديقاً، ولنفترض جدلاً أنهم أخطأوا في الحكم على شخص البرادعي حينها، أليس ذلك أدعى أن يفكر شباب الإخوان في أنه من الممكن أن تخطئ شورى الإخوان ومكتب إرشادهم وكبيرهم، أو بالأحرى «شاطرهم».

لست مهتما بالتغيرات التي حلت بآراء الإخوان كجماعة لأنها نسبية وتتغير تبعاً للمصالح السياسية مع هذا أو ذاك، ما أثار اهتمامي في المقام الأول والأخير هو تعامل شباب الجماعة، ذلك الشاب الذي كان يدافع بقوة عن محمد البرادعي في 2010 هو ذات الشاب الذي يطعن في نزاهة الرجل في 2012، الشاب الذي كان يمدح حكمة الجماعة التي أنقذت مصر لأنها لن تترشح للرئاسة، هو نفس الشاب الذي يمدح حكمة الجماعة في قرارها بالترشح للرئاسة، ذلك القرار الذي سينقذ مصر أيضاً، وسألت نفسي أين إرادة الشباب وقناعاتهم في ما حدث ويحدث؟!

أذكر أن أحدهم خاطبني بعد الإعلان عن الإعادة بين شفيق ومرسي في انتخابات الرئاسة، وقال لي ألم أقل لك بأن قرار الإخوان كان قراراً حكيماً بالترشح للرئاسة؟ وعلل كلماته بأن الإخوان لو لم يعلنوا الترشح للرئاسة لنجح شفيق من الجولة الأولى، فأعلنت عن دهشتي من هذا الشاب الجامعي الذي عطل عقله من أجل الجماعة، وقلت له سائلاً: الإخوان حصدوا 6 ملايين صوت في انتخابات الرئاسة، قال: نعم، قلت: لو لم يترشح الإخوان ما الذي كان سيحل بتلك الأصـوات؟ فعجز عن الرد، فقلت: كانت تلك الأصوات ستنقسم ما بين حمدين صباحي وعبد المنعم أبو الفتوح، أي أن الإعادة كانت ستتم بين حمدين وأبو الفتوح هذا إن لم ينجح أحدهم من البداية، فصمت هنيهة مدعياً أنه يفكر، ثم قال: أنت لا تفهم جيداً في السياسة، الإخوان أنقذوا مصر بقرارهم الحكيم وخرج وهو مقتنع أنني غبي لا أفهم في لعبة السياسة التي يديرها مكتب الإرشاد بقوة، غير أني صدقت على اتهامه إياي بالغباء ذلك أني أضعت وقتي في الحديث مع آلة لا عقل لها.

كانت تساؤلاتي في رحلتي داخل الجماعة تكاد تفتك بعقلي: أين أنا؟ أين إرادتي؟ أين قناعاتي؟، قد يعشق أحدكم لوناً معيناً من ألوان الحياة، غير أنه من الحمق أن يفرض على من هم تحت سلطته أن يعشقوا نفس اللون، والفرض هذا هو ما كان يحدث داخل دائرة الجماعة، ولكن هناك أمور متبعة لتفادي تمردهم. لتتجنب ثورتهم عليك أن تلغي قدرتهم على تذوق هذا اللون أو ذاك، ذلك بقتل معرفتهم وإدراكهم بأن هناك ألواناً عدة من المتعة، وأنه لا يوجد سوى لون

واحد، ولنأخذ كمثال شعار «الإسلام هو الحل»، ذلك الشعار لا يعطي لشباب الإخوان طريقاً آخر للتفكير، هو لون واحد وفقط، والتفكير في آخر طعن في عقيدة المسلم، هذا أولاً، وثانياً أن تؤسس لديهم عقيدة أنك لا تخطئ أبداً، وأن قرارتك وحي وإلهام من السماء، وهذا ما يمثله مكتب الإرشاد، فيصير الحشد للاستفتاء هو الحل، ومعارضة ثورة محمد محمود هي الحل، والاستيلاء على أغلبية الجمعية التأسيسية لوضع أول دستور بعد ثورة يناير هو الحل، ليس شعار الإسلام وفقط هو الحل، بل كل ما يخرج من مكتب الإرشاد هو الحل، وفقط هو الحل. وبذلك تضمن أنهم سيعشقون ما تعشق، بل سيموتون دونه ومن أجل نصرته.

غير أنني كنت قد صحوت من غفلتي قبل أن يقتلوا هذا العقل، وقبل أن أعتنق هذا الدين الجديد.

مرة أخرى: دين الإخوان

كانت دائرة مغلقة. أسوار عالية. إلا أنها ما لبثت أن تصدّعت وأوشكت على الانهيار. كان انتقالي إلى المدرسة الثانوية بمدينة أخرى بداية هذا الانهيار. المدرسة الإعدادية حتى وإن كانت في قرية أخرى غير قريتي إلا أنها لا تزال قرية، تحمل نفس الأفكار التي تحملها قريتي، فالقرى ليست في حاجة إلى أديان تشدّد على أهلها، فأعرافهم وتقاليدهم تكفي وزيادة، أما المدن فالأمر نوعاً ما مختلف.

وكما حدث صعود في مواطن من حياتي، كان هناك هبوط في مواطن أخرى، فكلما زاد اهتمامي بمحاولة الخروج من شرنقة الإخوان، وزاد اهتمامي بالسعي لإيجاد إجابة لتساؤلاتي، كلما كان هناك هبوط في مستواي الدراسي، وكان هناك هبوط في علاقاتي الاجتماعية وصداقاتي. محاولاتي للخروج من الإخوان كانت تستلزم تركي لتلك البيئة بالكلية، حتى تلك الأسرة التي كنت أجالسها في دائرتي الإخوانية، لم تكن تحقق ما يكفيني من السعادة، هم أضحوا أصدقاء لا يفترقون، حاولوا كثيراً إدماجي في صداقتهم تلك، غير أنهم لم يفلحوا، كنت في واد آخر، وعوالم أخرى، تدور كلها في فلك البحث عن النفس.

بدأت أملّ من دراستي، لم أكن أجد بين كتبي المدرسية أية إجابات تشفي الغليل، كانت عقيمة، يعلوها التخلف، لا أدري من هذا الذي ابتلينا به ليكون صاحب فكرة الكتب المدرسية تلك. نوعاً ما كنت أجد الملاذ في كتاب التاريخ وكتاب النصوص الشعرية على ما فيهما من نقص يخلّ دائماً بالنص، غير أني كنت أحصل على طرف الخيط من تلك النصوص وأغذيها بقراءات حرة من الخارج. أستعين دائماً بمكتبة المدرسة، لم أكن أملك من المال ما يكفي لشراء الكتب، وأبي كان يجد في القراءة الحرة ملهاة عن دراستي الأصلية التي ستجعل مني إنساناً مرموقاً، فكان لا يعطيني المال اللازم لشراء الكتب، أو بمعنى أدق فإن راتبه الحكومي كان لا يكفي إلا لما يسد رمق أسرة مكونة من زوج وزوجة وخمسة أبناء.

ومكتبات الإخـوان كانت لا تحوي سوى كتب الفقه والسيرة والعقيدة التي يكتبها رجالات الإخوان ليقرأها الإخوان. كان العثور على رواية في تلك الآونة بمثابة من وجد كنزاً لا مثيل له، لكن هذا الأمر لم يلبث إلى حين، ذلك أنه كانت لدينا جارة تدرس في الجامعة كانت تملك مكتبة ضخمة، العجيب أنها لم تكن يوماً من الإخوان، وهذا أمر جلل في قريتي، كيف كان لها أن تفلت من براثنهم، خاصة أنهم يلقون شباكهم أكثر حول الطلبة والتلاميذ؟، ففي تلك الفترة في منتصف التسعينيات من القرن الماضي لم يكن يخلو بيت في قريتي من عضو أو اثنين في جماعة الإخوان المسلمين، تواصلت مع تلك الجارة وكانت تمدني دائماً بالروايات والقصص: توماس مور، شكسبير، تشارلز ديكنز. أذكر أني قرأت تشارلز ديكنز في العام 1996، كنت حينها على مشارف الالتحاق بالمدرسه الإعدادية، أوليفر تويست، لا أعرف

لماذا كنت أعشق تلك الرواية، هل كنت أنا الآخر أبحث عن عائلتي بعيداً عن هؤلاء الذين اغتصبوا طفولتي.

مثّلت لي مكتبة المدرسة ومكتبة جارتي العون على مسعاي، غير أن هذا السعي عاد بالسلب على دراستي، وتحولت من قائمة المتفوقين إلى قائمة الأغبياء، على حد قول بعض أساتذتي، غير أن بعضهم كان يراني مختلفاً، خاصة أستاذي التاريخ واللغة العربية، أما غيرهما فكان يرى أن أمثالي لا حل لهم سوى أن يتركوا أماكنهم لأناس لهم عقل أرقى، هؤلاء الأغبياء كانوا لا يقلون قتلاً للإبداع عن الإخوان.

لم تكن الصورة قد تشكلت بعد وأنا في تلك المرحلة، فلم أترجم أحاسيسي حينها على أنها بداية الخروج من الدائرة، إنما ترجمتها أنها ضعف عقيدة، وإيمان أضحى هزيلاً ويجب تقويته، هكذا تعلمنا. السؤال عن بعض الأمور في جماعة الإخوان أو التيار الإسلامي عامة يعد ضعفاً في العقيدة وجب مداواته. يقولون إذا تعارض النص مع العقل قدم النص على العقل، وقد كنت أجد صعوبة في تقديم النص، أي أن إيماني بعقيدة أهل السنة إيمان منقوص، لهذا كنت أسعى لتقوية إيماني بالاستزادة من الصلاة والقيام وقراءة القرآن. أذكر أنه في مرحلة من مراحل الترك مر عليّ عام كامل وكأنّي راهب يحيا في صومعة، قيام وصلاة وقرآن ودعاء، كنت أسعى لقتل تلك الوساوس؛ لأن أشدّ من أزري الواهن، كما أخبروني، كنت في عزلة تامة عن كل ما هو دنيوي، وكنت دائماً ما أسعى للتطهر من هذا الرجس والنجس الذي تفشى في مجتمعاتنا، غناء وفن وحب وملهاة عن ذكر الله، هل مر على أحدكم عام كامل لم يشاهد تلفازًا أو يستمع لإحدى روائع أم كلثوم؟

سوى أني لم أدرك إلا حديثاً أنهم هم الواهنون، قال أحد شيوخ الصوفية: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة». هل كانت عبارة الإخوان المسلمين أضيق من رؤيتي؟ ربما.

المرحلة الثانوية كانت مرحلة من الثراء لا تقارن بأي حال من الأحوال بأية مرحلة أخرى، فالمذاق الأول لكل شيء يكون له صدى أوقع، وفي تلك المرحلة كان المذاق الأول لألوان حياتية عدة. ولو أمكنني أن أقدم الشكر لشيء ما لقدمت الشكر لمكتبة تلك المدرسة التي احتوتني بأرففها التي غزت عقلي حينها بما احتوته من مئات الكتب.

ولأن للمدينة أخلاقاً تختلف نوعاً ما عن أخلاق القرية، فقد نصّبت نفسي نبي تلك المدرسة الذي جاء لينشل طلابها من الضياع. أذكر تلك الخطب العصماء التي كنت ألقيها على الطلاب في فصلي عن الجنة والنار والطاعة، عن فلسطين وحربنا مع اليهود، كان الأساتذة إن أرادوا أن يهربوا بأعصابهم من حصة مملة طلبوا مني الحديث مع الأصدقاء عن هذا الدين الجديد. كنت أبشرهم بالإخوان المسلمين، الذين جاءوا لينشلوهم من الضياع، وكان هذا الأمر يسمي في الإخوان «الدعوة الفردية»، فأنت مطالب دائماً بإحضار أحدهم لإعانته على الهداية والعودة من ضلاله. ولم يكن يعني أساتذتي حينها تلك المسألة. اثنان فقط هم من واجهوني. وكانوا دائمي التحذير من خطورة انضمامي لتلك الجماعة المحظور نشاطها. لكني لم أكن أكترث بتحذيراتهم فقد كنت أسير في طريق الجنة!

* * *

ولأن احتياجي للمال وأنا طالب في المرحلة الثانوية كان يسبب لي أرقاً إلى جانب ضيق حال أسرتي الذي كان يمنعهم أن يلبوا القدر الطبيعي من احتياجاتي فقد عرض عليّ أحد شباب الإخوان الأكبر مني سناً، والذي كان يملك مكتبة لبيع الأدوات المدرسية والأشرطة الدينية والكتيبات الإسلامية أن أبيع تلك الأشياء للطلبة في مدرستي، وقد كان. كنت أذهب إليه يومياً لإحضار ما يتسنى لي حمله من الأشرطة والملصقات التي تحمل أذكاراً وأدعية وأعمل على بيعها بين أصدقائي في المدرسة.

كان هذا الأمر يدر دخلاً لا بأس به حينها، كانت نسبة الأرباح تعادل ضعف الثمن الأصلي في أحيان كثيرة، فأنت تشتري تلك الأشياء بأثمان بخسة وتبيعها كما تشاء ولن يعارضك أحد، فهل لأحدهم أن يساومك في سعر خطبة دينية للشيخ محمد حسان أو حسين يعقوب أو أبو إسحاق الحويني؟ ستكون هذه علامة على ضعف إيمانه ونقصان دينه، هو يشتري ويدفع وكأنه يتصدّق بهذا المال. وليست هذه تجارة في نظره، هي أموال تخرج في سبيل الله للتزود من علم الله.

وبدأت أولى ملامح استغلال الدين تتشكل في عقلي. رغم أنها مصالح وتجارة، إلا أن هيئتي الدينية وحديثي المفعم بالإيمان كان يلهي المشترين عن مكاسبي التي أجنيها من ورائهم، وكان يعطيني الأمان أن أحدهم لن يسرقني أو يجهدني في الحصول على مالي. أما المال الذي كنت أجنيه فكنت أشتري به أنا الآخر تلك الأشرطة والملصقات، أنا أيضاً رغم إدراكي للأمر كنت أشتري تلك الأشياء باعتبارها أموراً أتقرب بها إلى الله، دون أن ألحظ أن صديقي الإخواني هذا الذي

يعطيني الأشرطة والملصقات الدينية، والذي لا يزال طالباً في الجامعة قد اشترى هاتفاً ظهر حديثاً يقولون إن بإمكانك أن تتحادث من خلاله دون أسلاك، يسمّى الموبايل، وكان سعره حينها يجاوز الألف جنيه.

ضعف مستواي الدراسي حينها، مما تسبب في نفور الطلبة والأساتذة مني. وكان إدراكي لدور الدين في استقطاب اهتمام الآخرين من أجل سدّ هذا النقص قد جعلني أتمادي لا إرادياً في استخدامه، فأخذت أظهر الأمر. هذا بالإضافة إلى مشاركتي في برنامج الإذاعة المدرسية، كنت مختصاً باستحضار حكمة يومية لأحد الحكماء أو الفقهاء وإلقائها على الطلبة. وقد استطعت في وقت وجيز أن أحدث نقلة ما في نوعية تلك الحكمة المدرسية التي عاصرناها جميعاً. جميعكم يذكر هذا الطالب الذي يقف في الإذاعة المدرسية ثم يلقي علينا حكمته التي تكرّرت على مسامعنا جميعاً في برامج الإذاعة المدرسية: «العقل السليم في السليم، أو «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد».

استخدمت قراءاتي المتعددة وهذا الكنز الذي تحتويه مكتبة المدرسة في الحصول على حكمة يومية أردّدها على مسامع زملائي، أسعدني جداً أن أحد أساتذتي قال لي ذات مرة إنه لم يكن يفضّل حضور طابور الصباح لأنه يراه مملاً، لكنه أضحى يحضر الطابور خصيصاً كي يستمع لتلك الحكمة. هذا الأمر ساعدني لأن أتدرج سريعاً في موقعي في الإذاعة المدرسية حتى صرت المسئول عنها، فاستخدمت ذلك لإحداث نقلة أخرى.

كنت يومياً ألخص الأحداث الجارية على الساحة السياسية في

بضعة أسطر، ثم أقرأها على الطلبة في الإذاعة المدرسية، بعد أن أصبغها بالصبغة الإسلامية، من باب أنقذوا غزة، وجنين تقتل، أفغانستان تمزّق، العراق يحتل، ولم أكن أبذل العناء لتلخيص أحوال الفقر والجهل والمرض المتفشي في أهل بلدي، فتلك الأمور لم تكن موضع اهتمام داخل دوائرنا كما أسلفت. كنت أستعين بتلك الملصقات التي أبيعها في أموري تلك، حيث كنت أحضر باكراً إلى المدرسة ومن ثم أعلق بضعة ملصقات تحمل صوراً للشهيدة إيمان حجّو الشهيدة الفلسطينية ذات الأربعة أشهر، أو أخرى للطفل محمد الدرة الذي قتل في حضن والده، ولم تكن تمر دقائق حتى يأتي مدير المدرسة مسرعاً ليرى من ارتكب تلك الفعلة النكراء، ويأمر بنزع الملصقات، فيأتي اليوم الذي يليه فأضعها مرة أخرى.

لما اشتدّ الأمر وأضحيت أتمادى في الهجوم على سياسات أمريكا واليهود ضد المسلمين، ولما أضحت الإذاعة المدرسية ذات معنى بعد أن احتلّها شباب الإخوان المسلمين، قرّرت إدارة المدرسة تغيير المسئول عن الإذاعة بمسئول آخر. كان يحاول التقليل من وطأة أفعالنا نوعاً ما، إلا أن تمادي الآلة العسكرية الإسرائيلية في قتل مسلمي فلسطين وخروج العديد من المظاهرات في مدارس مصر تضامناً مع انتفاضة فلسطين في العام 2001، دفعني لأن أقيم يوماً مشهوداً في الإذاعة حينها. أعددت بضعة أسطر كانت أقرب إلى السبّ والقذف في الغرب الكافر، وأثناء خطابي في الإذاعة قامت إدارة المدرسة بفصل الكهرباء عن الميكروفون محاولين منعي من إكمال خطابي، غير أني لم أنته، فتقدمت إلى منتصف الفناء الخاص بالمدرسة وأكملت خطابي

بصوت جهوري ارتجّت له أركان نفسي، فوجدت مدير المدرسة وقد أسرع إلى الميكرفون ـ الذي أعادوا إليه الكهرباء ـ وأخذ يردّ على ما قلت كلمة بكلمة، وينعته بأنه كذب وافتراء وأنني لا أفقه من أمري شيئاً. وتم اصطحابي إلى غرفة المدير وأخبرني المدرس المسئول عن الإذاعة أن رجالاً من أمن الدولة قد حضروا إلى المدرسة لما وصلهم من إثارة بعض القلاقل من جانب بعض الطلاب، وأنهم يخشون علينا باعتبارنا أبناءهم، وأنهم سيعطوننا فرصة أخيرة للعودة من هذا الطريق الذي لن يقودنا إلا إلى كل شرّ.

بمجرد أن خرجت من غرفة المدير صعدت إلى فصلي الدراسي وأخذت أحدث بعض زملائي عن أننا يجب أن يكون لنا دور في هذا الذي يحدث، ضارباً بعرض الحائط تهديد أستاذي وكلامه عن أمن الدولة. طلبوا مني حينها كتابة بعض الهتافات، وكان القرار أن نخرج في تظاهرة بعد انتهاء اليوم الدراسي. لم تكد كلمة تظاهرة ترد على مسامعي حتى أصابتني تلك الرجفة من جديد، وعادت الرعشات إلى يدي وقدمي، لقد طلبوا مني أن أتقدمهم، ولكني خذلتهم.

بمجرد انتهاء اليوم الدراسي تركتهم وذهبت، ولكنهم نفذوا عملياً على أرض الواقع ما جبنت أنا عنه حينها. هل حقا جبنت؟ أم أنه الخوف من القيادة الذي حبب إلى قلبي أن أكون تابعاً لا متبوعاً؟ أم أنني أردت أولاً أن أستأذن من شيخي؟ لقد خرجت في مظاهرات عدة، وشاركت في تجمعات إخوانية لا حصر لها، غير أن تلك المرة كان لزاماً عليّ أن أقرر وحدي دون أن يقرر لي أحدهم، ولكني عجزت عن اتخاذ قراري منفرداً.

في اليوم التالي حضرت إلى المدرسة غير أن العديد من أصدقائي لم يحضر. وصل إلى مسامعي أنها كانت معركة حقاً مع رجال الأمن المركزي والشرطة، فبعد أن خرج طلاب مدرستي الثانوية إلى الشارع للتظاهر انضم إليهم طلبة المدرسة الإعدادية وطلبة المدرسة الثانوية الفنية والتحموا في مسيرة حاشدة. لم تتركهم قوات الأمن كثيراً، ذلك أن مدرستي كانت تجاور منطقة عسكرية وليست ببعيدة عن قسم الشرطة، فما لبث العسكر أن هاجموا المسيرة وأعملوا هراواتهم في أصدقائي واعتقلوا بعضهم، وكان منهم صديقي عمرو عاطف الذي لا أعلم أين أراضيه الآن، وصديق آخر هو محمد عبد اللطيف والذي لا زلت على تواصل معه وكان أحد المشاركين في ثورة يناير.

تملكتني الحسرة واعتراني الندم لأنني تهاونت في حق أصدقائي، كان يجب أن أتصدرهم في هذا الأمر، فأنا من بدأت الأمر، وتركي لهم الآن لا ترجمة له سوى أنه نفاق. هل يقول الإخوان ما لا يفعلون، أم أن هذا أمر خاص بي؟ حضر أصدقائي بعد يومين من الحادثة وكانوا يسيرون وقد بدا عليهم أثر التعذيب.

علمت منهم أنهم كانوا في المقدمة وأنهم نالوا الحظ الأوفر من الضرب بهراوات الشرطة، ومن ثم تم اعتقالهم واحتجازهم في سيارة الشرطة حتى انتهاء التظاهرة ومن ثم تركوهم. لم أجد الكلمات التي أبرر بها موقفي، غير أن تعاملهم معي لم يجعلني في حاجة لتلك الكلمات. لقد نسيت أنني الشيخ فلان، والشيوخ من المؤكد أنهم دائماً على صواب، فهم لا يكذبون، ولا ينافقون، وهم أهل الله وخاصته. أدركت للمرة الثانية كيف أن الأديان قد تجعل الحقيقة مشوشة لدى

الأتباع، فأنت تعامل رجال الدين على أنهم هم الدين، وأن أي طعن فيهم هو بالضرورة طعن في الدين، وحتى تهرب من الطعن في الدين الذي قد يهوي بك في نار جهنم فأنت دائماً ما تجد لهم المبرر، وهكذا سحل وضرب واعتقل أصدقائي وأضحيت أنا البطل وبكل سهولة، ودون عناء إلا أني لم أقو على تحمّل هذا الأمر، لم أقو على تحمل أن أكون كاذباً أقول ما لا أفعل، فكانت رحلة تركي الأولى للإخوان، تلك التي لم تحللني كلياً من ربقتهم، غير أنها كانت أول مسمار دق في نعش دائرتهم.

الشيخ والمريد

كنت أعجب من هذا الشيخ الذي لا يكلّ ولا يملّ، وكنت أسأل نفسي دوماً: ألا ينام؟! هو شاب في منتصف العقد الثالث من عمره، ورغم تلك السن الصغيرة كان زوجاً وأباً لطفلة في السادسة من عمرها أي أنه تزوج قبل أن يبلغ العشرين. اعتاد الجيران على هذا الطارق الذي يأتيني فجراً، يرسل دقاته المميزة على الباب فيخرج أبي ليخبره أني نائم، فيطلب منه إيقاظي وأبي ينفذ أمره بكل مرونة، أخرج عليه فأتحجّج بأية حجة قد تمكنني من الهروب من هذا الورد اليومي، لكن دائماً ما تفشل محاولاتي. أذكر أني خرجت عليه مرة لا أرتدي سوى بنطال دون شيء يستر الجزء العلوي من جسدي، أخبرته بأنه لا توجد ملابس نظيفة أرتديها لأذهب معه لأداء صلاة الفجر في المسجد، فما كان منه إلا أن استوقف أحد الجيران وهو في طريقه للمسجد وطلب منه إحضار شيء من منزله أرتديه للذهاب معهم. كنت أظنه في أوقات عدة مصاباً بمس من الجنون، وفي أوقات أخرى كنت أحسده على مثابرته وصبره، كانت له إرادة غريبة، ولكنها لم تكن تتحرك إلا لأجل الإخوان المسلمين ودعوتهم. هو ذلك الشيخ الذي رمقني بعين الاهتمام في المسجد، إنه شيخي الذي دخلت على يديه تلك الدائرة،

دائرة الإخوان والتي لم أخرج منها إلا في العام 2005، والتي ظللت لخمس سنوات من 2005 حتى 2010 أتحلل من أدرانها. لم يكن شيخاً بالمعنى الأزهري، هو شخص ملتزم هذا الالتزام العادي الذي يميز مجتمعاتنا المسلمة، حاصل على تعليم متوسط، يقرأ كثيراً في العلوم الفقهية والتاريخ الإسلامي. إلا أننا في مجتمعاتنا الشرقية لا نبخل بإضفاء ألقاب مثل: الشيخ فلان ومولانا فلان على كل من ظهرت عليه أدنى بوادر الالتزام.

بل إنني حتى الآن ـ ورغم كوني انفصلت عن التيار الإسلامي وطلّقت مظاهره منذ سنوات ـ إلا أنني أجد في قريتي من لا يدعوني باسمي مجرداً، يجب أن يسبقه بلقب الشيخ أو مولانا، على الرغم من كوني وطبقاً لتعاليم دين الإخوان من المفترض أن أدرج تحت لقب «مسلم عاص»، غير أنهم ألبسوني اللقب، وليس من المفترض لأحد أن ينزعه عني. حتى اللحظة هناك أناس يستفتونني في أمور دينهم ودنياهم، أحاول الخروج من هذا المأزق بأقل الخسائر، أخشى أن أفسد عليهم دينهم فأتحول من مسلم عاص إلى مسلم مرتد. غير أن شيخي حقاً كان يستحق هذا اللقب، كنت لا تراه إلا في المسجد، أو ذاهباً للمسجد، أو عائداً من المسجد. كان يهب حياته كلها لخدمة دينه المتمثل في خدمة جماعة الإخوان المسلمين. هو الآن مسئول الأشبال داخل شعبة الإخوان في القرية. كان يملك تلك القدرة على التعامل مع الأطفال واحتوائهم، وكان يحمل على عاتقه مسئولية كل طفل في القرية وكأنه أب لهم جميعاً. أذكر أن أحد الأطفال، وقد خرج من ربقتهم، كان متمرداً ويميل للعب واللهو، ولم يكن يقرب المسجد،

وإن دخل ليصلي أثار زوبعة وأخذ يؤرق على المصلين صلواتهم، فما كان من شيخي في أحد الأيام إلا أن صرخ أمامنا بحضور آخرين من شباب الإخوان قائلا: «هو ماحدش عارف يجيب رجل الواد ده؟»، وطلب من أحدهم خصيصاً أن يتفرغ له، هذا ما يسمى كما قلت سابقاً «الدعوة الفردية» داخل الجماعة.

لم أستطع أن أحدد حينها هل يعاملني شيخي معاملة خاصة، أم أنه هكذا مع كل الأطفال؟! لكن وهل يمر على جميع الأطفال في منازلهم ليأخذهم لأداء صلاة الفجر في المسجد؟! هل يلتقي كل الأطفال في بيته في كل وقت وفي أي وقت؟! هو من ساعدني على استخدام صوتي الذي ظنّوه حسناً حينها في الإنشاد أثناء تجمعات الإخوان في القرية. كان لا يمل ولا يؤجل عمل اللحظة إلى اللحظة التي تليها. كنا نبدأ يومنا بعد صلاة الفجر، نذهب للمسجد ونصلي، ومن ثم نلبث قليلاً في المسجد نقرأ القرآن وبعض الأذكار والأدعية، ثم يسأل كلاً منا عن تأدية بعض التكليفات التي تكون قد طلبت منه خلال الأسبوع، مثل إقامة الصلوات، إخراج بعض الصدقات، حسن معاملة الأب والأم، صلوات السنن، الأدعية والأذكار، وكان كل ذلك يسجَّل في ورقة على شكل مربعات، ونقيّم كل عمل في الخانة التي تقابله بوضع علامات تفيد القيام بالعمل أو عدم القيام به. ربما هذا الورد تسبب في كرهي للجداول والنظام وترتيب يومي، ذلك أنني دائماً ما كنت أعجز عن القيام بكل ما فيه، بالإضافة إلى كوني طفلا في الحادية عشر من عمره من المفترض أن يكون مع الأطفال في مثل سنه الآن يلعب ويلهو، يثير القلاقل ويزعج والديه بتلك الشقاوة المعهودة في الأطفال، يشارك

الأطفال حياتهم التي تناسب تلك السن، لا أن يقوم بأشياء يعجز عن الإتيان بها رجال ذوو شوارب، بل وربما شيوخ ورجال دين. كان شيخي بمجرد الانتهاء من تلك الجلسة يأخذنا إلى بيته للإعداد لخطبة ما نلقيها في المسجد، أو التمرن على بعض الأناشيد التي نلقيها في احتفاليات الإخوان. لم تكن ـ بالطبع ـ خطبة بالشكل المتعارف عليه، إنما بضعة سطور حوت أحاديث وآيات من القرآن والمواعظ النى نقرأها من ورقة قد أعدها الشيخ سلفاً، نقوم بإلقائها على مسامع الحضور بالمسجد بعد الانتهاء من الصلاة، وهكذا بشكل شبه منتظم وفي أغلب مساجد القرية.

ولأنه كان شيخي فكنت أعمد إلى تقليده في كل شيء. أردت أن أكون نسخة مكررة منه، كنت أعتقد أنه من الصواب أن أعيش حياة إنسان آخر له من الظروف والمكتسبات والقدرات التي تؤهله لمكانته والتي من المؤكد أنها على غير ظروفي ومكتسباتي وقدراتي، فهو هو لأنه يحيا نفسه، أما أنا فلن أكون لا أنا ولا غيري، ذلك لأنني سرت في الطريق الخطأ، ربما أن مسلكي هذا ساعدني في الخروج من دائرتهم، ذلك أنني كنت دائم الإحساس أني أحارب من أجل إنسان آخر، وقضية ليست قضيتي. لقد دخلت الجماعة بهذا الشخص، وظللت فيها من أجله، وتركتها أيضاً لأجله، وفي أحيان كثيرة قبل أن أتخلص من ربقتهم بالكلية لو أنه كان أمرني بالرجوع لكنت عدت لدائرتهم من جديد. لا أجد تفسيراً لذلك، قد يدرك أحدكم من المهتمين بالسلوك الإنساني مغزى تلك العلاقة.

شيخي هذا كان مسئولاً عن الأشبال في القرية ممن هم دون سن

المراهقة؛ فلكل مرحلة سنية شيخ بمستوى معين وأيضاً لكل فئة شيخ يناسب مستواها؛ العمال لهم تنظيمهم الخاص، وطلبة الجامعة لهم تنظيمهم الخاص... وهكذا. فأنت بمجرد أن تبلغ سناً محددة يتم نقلك لمستوى آخر، من المفترض أنه أكثر أهمية، وبمستوى تربوي مختلف، وكلها تدور في فلك إعداد الفرد المسلم الذي سيكبر ليتزوج امرأة مسلمة، ومن ثم تتكون الأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم فالدولة المسلمة فالعالم المسلم، ومن ثم التحكم في العالم أو ما يسمى داخل دوائر الإخوان بـ«أستاذية العالم».

بعد سنتين تقريباً من وجودي مع شيخي انتقل بي الدرب لشيخ آخر، ومن ثم لثالث فرابع فخامس فسادس، كنت أنتقل من أسرة لأخرى وكأنني عبء عليهم. لم يكن يمر على وجودي في أسرة منتظمة بضعة أشهر حتى أنتقل لأخرى. العجيب في هذا الموضوع أنه ورغم هذا التنظيم المحكم لتلك الجماعة إلا أنهم نسوا أن الاستقرار لأطفال في سن المراهقة هي مسألة مهمة نظراً لخطورة تلك المرحلة. غير أنني أولاً أضع الضغوط الأمنية التي كانت تمارس ضدهم محل اعتبار، وثانياً أعتقد أن المجموعة التي تم نقلي إليها لم تكن بذي أهمية لهم لأنها لم تكن تبدي الطاعة المطلوبة. يكفي أن أقول لكم إن أسرتي تلك لم يستمر منهم داخل تنظيم الإخوان سوى فرد واحد.

رغم تعدد هؤلاء الشيوخ فلم يسدّ أيهم يوماً هذا الفراغ الذي تركه في نفسي فقد شيخي الأول، بالإضافة إلى كوني لم ألمس فيهم نفس هذا الإخلاص وتلك الجدية، البذل من أجل الدعوة، لم يعد هناك من يأتيني فجراً ليرى لماذا لا أصلي الفجر! لم يعد هناك من يهتم بالوِرد

الأسبوعي، لم يعد هناك من يهتم بنا أصلاً، وبدأت أشعر أن الكلام في دوائرنا مكرر، نفس القصص القرآني، نفس الأحاديث، نفس الشخصيات الإسلامية التي كنا نتدارسها، هي هي لا تتبدل. وبمرور الوقت لم يعد يهتم بنا أحد أصلاً، هل كانوا يريدونني بينهم حقاً؟

تلك الأسرة التي كنت أنتمي إليها في المرحلة الأولى لم أنتقل معها في مرحلتي الثانية، انتقلت لأسرة أخرى اتّسم أعضاؤها بالإهمال والتمرد وعدم الطاعة، أما الأسرة الأولى التي نشأت فيها فقد انتقل بعضهم إلى أسرة أخرى والباقي لم يستمر داخل الدائرة، إما بسبب رفض الأهل للوجود داخل تلك الدائرة نظراً لمطاردة الأمن للإخوان أو لاختلاف تلك العائلات مع الإخوان في الفكر كأن يكونوا سلفيين أو أعضاء في جماعة أخرى، أو لأنهم لا يهتمون أصلا سوى بالدفع بأبنائهم الصغار لإحدى ورش العمل للحصول على المال من ورائهم.

ذكرتني تلك الأسرة التي انضممت إليها حديثاً بفصول المتفوقين وفصول الطلاب المتخلفين التي كنا نراها في المدارس. كانت في منتهى العنصرية، فهم يجمعون كل من يتبادر إلى الذهن أنه لا أمل فيه في مكان واحد وتبدأ عملية النبذ كأنهم نجس. تلك رؤية قد تصح وقد تخطئ، غير أن مقابلة مع الشيخ حدثت بعد سنوات من تركي للجماعة أعادت السؤال لذهني من جديد، ذلك أنه أخبرني أنه كان يعلم أنني لن أستمر، ذلك أنهم أخبروه أنه لا أمل في استمراري معهم. اكتفى بتلك الكلمات وذهب، وتركني والأسئلة تضرب برأسي، من هؤلاء الذين أخبروه؟ وما الذي رأوه مني كي يحكموا بأني لن أستمر؟ وعلى أي معيار صدر هذا الحكم؟ هل داخل هذا التنظيم أناس يختارون؟

وهل هناك معايير وضعت للاختيار؟ وهل التمرد وعدم الطاعة من أهم أسباب الترك ونبذ العضو من داخل الجماعة؟ لم أكن مهتماً بالقراءة عن الجماعة من الداخل أو من الخارج بعد تركي لها، ولذا فليس لديّ إجابات، كل ما أسطره الآن مجرد أحاسيس عايشتها، نابعة من حقائق مررت بها.

ولو افترضنا أنني في نظرهم متمرد أو أني مسلم عاص، فلماذا لم يعينوني على نفسي؟ أليست هي في الأصل جماعة دينية جاءت لنشر الفضيلة والأخذ بيد الناس للخروج من الضلال لعالم الهداية؟ أم أنهم يختارون من يستحقون الهداية في نظرهم وينبذون الآخر؟ وهل جاءت دعوة الإسلام لأناس دون أناس؟ أم أنهم أصلاً ليسوا جماعة دينية ولا إسلامية وعلومهم في الدين ليست بذات الأثر، إنما هي جماعة تلحفت الدين كرداء للوصول إلى غاية معينة أصّلها في نفوسهم إمامهم حسن البنا؟ هل الأمر دين أم استخدام للدين؟ لو كان ديناً لما ميّزوا أشخاصًا عن آخرين ولجاهدوا لأن تصل دعوتهم للجميع، ولصبوا اهتمامهم على التربية والدعوة وتكوين الفرد المسلم أكثر من اهتمامهم بانتخابات الشعب والشورى وإنشاء الأحزاب والوصول للحكم، ولو كان الأمر دنيا فلم يميزون أنفسهم عن الآخر بارتداء عباءة الدين؟ ذلك أن استخدامهم للدين يخل بشرف المنافسة مع الآخر، أو ما يطلق عليه في دولة القوانين صفة «غير دستوري». ذلك أنك تفضل شخصاً على آخر في كونك تزوده بأدوات تقربه من الغاية في الوقت الذي تنزعها عن غيره.

كنت عندما يضيق بي الحال أتوجه لمنزل شيخي الأول رغم أنه لم يعد مسئولاً عني الآن، أبثّ له همي، وما آل له الحال، كنت أظن أنه

سيتفاعل مع بثي وشكواي، غير أنه لم يكن يكترث، لم يكن هذا الذي لا يكل ولا يمل، هل انتهت مهمته المحددة باستقطاب الأطفال؟ أم أنه لا يملك سوى تلك القدرة وفقط، وليس له قدرات أخرى؟ كان من أهم عيوبه أنه شديد الجانب، نادراً ما يضحك، وكان لا يتورع عن تأنيب شخص أخطأ، وكنت أنا على الوجه الآخر في حاجة لشخص لين الجانب يسمعني. كنت فقط أحتاج لشخص يسمع، يشعرني أنني لست وحدي، لا يسخر من تساؤلاتي، ولا يسفه رأيي، ولا يرد على تساؤلاتي بهذا الرد المعتاد لدى الإخوان المسلمين.. أنت ذو عقيدة ضعيفة.. أو أن إيمانك يفتر. كنت أريد من يحترم تلك التساؤلات، غير أنه وحتى اللحظة لا يوجد في رجال الدين خاصة والمتدينين عامة من يحترم تلك التساؤلات، فتلك مناطق وعرة إن دخل فيها أحدهم صار مرتداً، أوشيطاناً، كما يعتبرون تحكيم العقل فيها درباً من دروب الكفر، وفي أقل الفروض يسفه رأيك ويسخر منك، وفي أفضل الأحوال يأتيك برد لا علاقه له بسؤالك.

أذكر آخر مرة ذهبت لشيخي في منزله قبل أن أبدأ رحلتي مع التحلل والتفكك من ربقة الجماعة، حينها كنت وكأني أخبره أنني في أشد الاحتياج إليه، كان الترك حينها ونظراً لتربيتي الدينية التي مزجت فكر الجماعة بالدين تعني تركي للدين، أنا أسعى في طريق الكفر. غير أن شيخي نظر لي بلا اهتمام، ثم تركني وذهب لغرفة مجاورة أحضر منها بعض الملابس وأعطاني إياها من باب الصدقة، كان يعلم سوء حال أسرتي المادية، وكان كثيراً ما يفعل ذلك، غير أني الآن لست في حاجة إلى أموال، لست في حاجة إلى صدقات. كنت في حاجة إلى إنسان

لا يسفه اعتقادي، ولا يسخر من رؤياي. أخذت الملابس من شيخي وتركته وذهبت، نظرت إليه والدمع يكاد يتساقط من عيني على حالي، أردت أن أخبر شيخي أن تلك الصدقة أيضاً تترك في نفسي جرحاً، لكنه لم يكن يسمع، كان ينفذ وفقط إرادة الجماعة، بيد أنه تقمص هو الآخر روح شيخه وصار مثلها حتى تحول لرجل آخر غير الذي أراد. يطيع وفقط وينفذ وفقط، ويستمر وفقط على هذا النهج الذي وضع لا يحيد عنه قيد أنملة. خرجت من منزل شيخي، شعرت فوراً أن بيته أضحى خلف ظهري وكأن الماضي كله أضحى هو الآخر خلف ظهري، وأخذت أبحث لنفسي عن نفسي بين ظهراني أناس آخرين.

ذات مرة بعد ثورة يناير في العام 2011 حدث احتكاك بيني وبين بعض شباب الإخوان، فأخذت أنتقدهم في حواري، فرد أحدهم عليّ بأني لا أفقه شيئاً، وردّ الآخر أن العيب في هذا الكلام الغبي الذي يملى عليّ ملمحاً إلى أني أضع عقلي تحت عتبات الإعلام الذي يشوه صورتهم، أو ربما يقصد أني أتعامل مع أمن الدولة!، ورد ثالث أنني أتبع أسلوب «خالف تعرف»، ورد رابع أنني أسعى للشهرة. ردود متعددة من شباب جامعي، جاءت جميعها مسفهة لرأيي، وتسخر منه، ولا ترد أيضاً على سؤالي. كنت أظن أنه ـ وبعد تلك السنوات ـ سيتغير الإخوان، كنت أظن أنه ـ وبعد سقوط النظام الذي كان يحاربهم ـ سيكونون أكثر انفتاحاً، غير أنه قد حدث العكس، فجميعهم ليسوا أنفسهم. هم تلبّسوا روح الشيخ، وإرادة الشيخ، ولهذا عندما تحاورهم لا يردون.. هم في انتظار رد الشيخ.. والذي غالباً ما ينتظر هو الآخر رد الشيخ الأعلى الذي تلبس هو الآخر روحه، وهكذا في دائرة حتى

نصل إلى الشيخ الإمام الشهيد الأعلى، وهو في القبر الآن قد أكله الدود، وليس من المنتظر أن يعود ليجيب عن تساؤلاتي. قد أكون على صواب، وقد أكون على خطأ لكنها رؤياي، فرجاء لا تسفهوا رؤيتي، ولا تسخروا من عقلي.

حبيباتي والإخوان

كنت أنتظر قدومها بشغف. كانت البسمة التي تعطي مذاقاً خاصاً للحياة، بل هي نفسها الحياة. كنت طالباً في الصف الخامس الابتدائي، من الصعب أن أصف شعوري الحزين إن مر يوم دون رؤياها، غير أني دائماً ما كنت أكتفي بالرؤية. على مدار عام دراسي كامل لم يحدث بيننا حديث مباشر، ولم أسع ولو للحظة لأن ألفت انتباهها لهذا القلب الذي شغف بها حباً. هل حقاً كنت أعرف أنه حب؟ ولكن هل يدرك هذا القلب الذي لا يزال في طور النشأة، والذي لم يطرق بابه بعد إحساس الرغبة في الجنس، هل يدرك تلك المفاهيم؟!

كان شعورا من أروع ما تملكني، هو الحب العذري كما أُنزل. لكن وفي يوم من تلك الأيام الغبراء التي من الصعب أن تُنسى، دخل علينا أستاذ اللغة العربية مع ناظر ومدير المدرسة، وقد رسمت خطوط من الغضب على وجوههم تنبئ عن عاصفة لا تبقي ولا تذر. قال أستاذ اللغة العربية إن والد حبيبتي حضر اليوم إلى المدرسة وأخبرهم أن أحدهم وضع خطاباً غرامياً لابنته خبّأه في حاجياتها، يبدو أن حبها طرق أبواباً غير بابي. نظرة الناظر والمدير ونبرة صوت المدرس كانت تنبئ أن غضباً سيحلّ على هؤلاء العصاة الذين أجرموا في حق الإله

وقد كان. فكيف لهم أن يحبوا ويعشقوا؟! كيف لهم أن يمارسوا هذا الهراء الذي هو في مقام الزنى؟ علمت إدارة المدرسة اسم من أرسل هذا الخطاب، غير أن الإدارة أرادت أن يكون العقاب جماعياً حتى لا يرتكب أحدنا تلك الفاحشة المسماة بـ «الحب»! كان العقاب عن طريق الضرب على باطن القدم. وتلك طريقة اتبعت قديماً لضرب المخطئين، وانتقلت من كتاتيب تحفيظ القرآن إلى المدارس؛ يقوم أحدهم بإمساك قدميك بإحكام بعد أن تكون قد تمددت على الأرض موجهاً باطن قدميك لأعلى، وبعصاةٍ غليظة يبدأ المدرس في توجيه ضربات قوية ومتتابعة إليك. الضربة الواحدة كفيلة بأن تجعلك تكره الحبيبة والأب والأم والعالم أجمع، فما بالكم بعشر ضربات؟ كنت أجلس في أول الصف باعتباري من المتفوقين، غير أن تفوّقي وحفظي للقرآن لم يشفعا لي، ولأنني أجلس في أول الصف فكنت أول المعاقبين، وكنت صاحب النصيب الأوفر من الضرب، لقد أفرغ المدرس شحنة غضبه كلها في أول من عاقب. أنهى المدرس الضربات العشر، وكان هناك إجراء احترازي متبع حتى لا تتورم القدمان، هو أن تسير على القدمين حافيتين لبضع دقائق.

كان الألم أكثر من احتمالي، فلم يُجْدِ المشي نفعاً؛ فأخذت أهرول جيئة وذهاباً مخترقاً الطريق أمام الفصول المجاورة لفصلي الدراسي. خرج المدرسون جميعاً مستفسرين عما يحدث، وكلما علم أحدهم بالأمر أخرج عصاته وأخذ يضرب فينا هو الآخر، فصرنا نتحسس أقدامنا ومؤخراتنا التي ضربونا عليها بقسوة. استمر هذا التعذيب لما يقارب الساعة، تم تعذيبنا وكأننا زنينا بالفتاة في ميدان عام ثم قتلناها

وقطعناها إرباً وحرقناها ومن ثم ألقينا بثراها في الهواء، لم يكن أكثر من مجرد خطاب!

ظللت طريح الفراش في منزلي لمدة أسبوع لا أقوى على السير على قدمي، ولأكثر من أربع سنوات ظللت أعاني ألماً في قدمي وظهري كنتيجة لهذا التعذيب الهمجي. إثر تلك الحادثة تكوّن لديّ رعب من كل ما له علاقة بالحب والفتيات. كنت ألمح إحداهن قادمة من طريق فأحول مساري لطريق آخر حتى لا أقابلها، حتى حبيبتي التي كنت أنتظرها كل يوم ليبدأ يومي وتعلو وجهي بسمتي صرت لا أقوى على النظر إليها. بعد تلك الحادثة ببضعة أسابيع قام والد حبيبتي بنقلها إلى مدرسة أخرى، ومع تركها لعالمي انتهت أقوى وأول قصة حب في حياتي، وآخر قصة حب لسنوات قادمة أيضاً.

بعد تلك الحادثة ببضعة شهور دخلت عالم الإخوان المسلمين، فطالما أنني مذنب وتحركني الرغبات تجاه الفتيات؛ فيجب أن أتوب إلى الله وهذا ما وجدته داخل دائرة الإخوان المسلمين، وفي هذا العالم زاد خوفي من المرأة وهروبي من أحاسيس العشق؛ المرأة في عالم الأديان عامة رجس لا يجب الاقتراب منه، قد يسطر الفقهاء والقساوسة مجلدات عن احترام الأديان للمرأة، غير أن الواقع ينبئ أن هناك خللاً بين النظرية والتطبيق. شيئان في عالمي كنت أشعر كأنهما لغز محرم علينا الاقتراب منه: المسيحي والفتيات، مهما حدثوك عما يسطر في الكتب فاعلم أنهم كاذبون؛ لأن ما نعيشه أمر آخر. حتى تكون أخاً ملتزماً، من أولياء الله فعليك أن تنبذ رغبتك في المرأة، أنت محرم عليك حتى مجرد التفكير فيها، وإن حدث فأنت إذن صاحب عقيدة مشوبة يجب مداواتها.

بعد تلك الحادثة بأربع سنوات تقريباً عرفت جارة لي لنسمّها «سارة»، كنت أتلمس فيها شيئاً ما، خشيت أن أترجمه حباً. كنت أحاول إيهام نفسي أنها علاقة عادية فرضتها مقابلاتنا التي تحدث حتمياً نظراً، لأننا متجاوران في السكن وزملاء ندرس في نفس العام الدراسي. كانت تحاول دائماً التقرب مني بأساليب شتى، هي أول من أهداني شيئاً في عيد ميلادي، كانت المرة الأولى التي أحتفل فيها بعيد ميلادي وكانت أيضاً الأخيرة، فتلك الأمور من البدع التي درّبني الإخوان على تجاوزها. كانت خمرية اللون أقرب إلى السمرة، في مثل طولي تقريباً، تنطق كلماتها بسرعة يصعب اللحاق بها، أظن أنها تركت في لساني منها أثراً، فقبل أن أعرفها كنت قليل الكلام، غير أنني ـ بعد أن طرقت حياتي ـ أضحيت أتحدث كأسرع رجل في التاريخ يكاد أصدقائي يحتاجون لمترجم لما أقول.

لم أهنأ في تلك العلاقة ولو للحظة، كانت كلها صراعات، ما بين هذا الألم النفسي الناتج عن حملة التعذيب التي قادها علينا مدرسو المدرسة الابتدائية والتي تركت في نفسي أثراً صور لي أن الحب دائماً يجب أن يقابله عقاب، فكنت كلما رأيت فتاة تلفت حولي كمن أجرم وينتظر أن ينزل به العقاب، لم أكن أعلم كيف ولكنه سيأتي لا محالة، حتى وإن كنا سوياً أنا والفتاة لا ثالث لنا، كنت أنتظر أن يأتي العقاب ساعتها من السماء، ربما سقط نيزك أو شهاب واصطدم برأسي لأصير بعده كائناً آخر غير الذي أنا عليه الآن، كان اعتقاداً حقيقياً وليس تشبيهاً، وبين تلك القصص والروايات التي نسمعها في دوائر الإخوان والتي تتحدث عن الطهارة وغض البصر وعن غضب الرب الذي يسخط على

هؤلاء الذين ينظرون إلى أية فتاة، مجرد نظرة، سواء نظرة حب أو غير ذلك، النظرة في حد ذاتها محرمة. كنت أظن أن الإله سيسخطني في الحال إلى مخلوق آخر إن ارتكبت المعصية، غير أنه وعلى الجانب الآخر كان يدور نزاع في نفسي بين هذا الترهيب من الحب وفي نفس الوقت الترغيب الذي فطرنا عليه، فكيف تكون المرأة نجس يستوجب الطهارة وتجديد العقيدة ومن ثم نجد في أنفسنا ـ نحن الرجال ـ هذا الانجذاب الفطري لارتشاف العشق من نهرها؟! كيف نسمع ليل نهار عن حرمة هذا التمازج بين الشاب والفتاة، ثم نجد آلاف الأغنيات ومئات الأفلام والمسلسلات التي تتحدث عن الحب والعشق والحبيبة والحبيب؟! كنت أقول لنفسي متسائلا بطفولة: ما هذا الغباء؟! إما أن تحرموا هذا الأمر بالكلية، وإما أن تتركوا لنا العنان لأن نغرق في هذا العالم.

وفي يوم من تلك الأيام الغبراء أيضاً والتي ستستمر معي إلى نهاية الرحلة طلبت مني سارة أن نلتقي بعيداً عن أعين الأهل، سيذهب كل منا منفرداً ونتقابل في الزمان والمكان المحددين مسبقاً.فنحن نسلك نفس الطريق كل يوم للذهاب إلى المدرسة، فأنت في قريتي تحتاج لأن تسير ما يقارب النصف ساعة على قدميك قبل أن تصل لطريق مأهول تستقل منه حافلة إلى حيث تريد. بعد بضع دقائق من السير يكون الطريق خاليا من الناس ومن السهل أن نتبادل أطراف الحديث دون أن يؤرق لقيانا أحد، كنا وكأننا ذاهبان لسرقة أحدهم أو لارتكاب عملية إجرامية، نخشى أن ترانا عين أحدهم فتفضح فعلتنا النكراء أمام أهلينا. قابلتها وكانت في حالة من الارتباك لم تحدث لي من قبل، وكانت أيضاً

في حالة من الأنوثة واللين وكأنها قطعة سكر ذابت في الماء فلم تمسك لها طرفاً، تقلبها يميناً تقلبها شمالاً فلن تعجزك شيئاً. نظرت لي نظرة لن أنساها، فيها من الشوق والحنين ما لم أره في عين أية فتاة أخرى عرفتها بعد تلك اللحظة، سكتت هنيهة، تنهدت بزفرات وكأنها على وشك أن تطفئ ناراً ألمت بها، تحولت سمرتها لحمرة ربما من الخجل، وربما من فرط اللذة التي احتوتها، فهي الآن بين يدي الحبيب. تحدثت قليلاً عن كوني نوراً ظهر في حياتها أضاء لها تلك الظلمة التي حيت فيها لسنوات مضت، قالت إنني مثلت لها هذا الأمل الذي يعطي للحياة لوناً ومذاقاً ويجعلها أكثر سعادة، ثم ما لبثت أن سكتت للحظات معدودة، وكأنها تهيئني لتقبل ما هو آت، ثم قالتها بحنان أذاب قلبي بين ثنايا حروفها:

ـ أحبك.

صمت.

ـ أحبك.

صمت.

قالتها وصمتت. وطال صمتها، فعادت وقالت: أحبك لا كما يحب العشاق، فتلك كلمات أضيق مما يدور بجنباتي، وأردفت أنها لا تلوي على شيء سوى كونها معي، وفقط معي، تحيا على هذا الأمل الذي سيجمعنا يوماً سوياً، حين نرتشف من نهر لذته ما يطفئ ظمأ السنين.

صمت.

تلبستني حالة من السكون والصمت لكم كرهتها، كنت أود لو أني ارتشفت من رحيق شفتيها غير ملتفت لمن حولنا، وهل يوجد أناس غيرنا؟ وكأني لم أعد أرى سواها، بل حقا لم أعد أرى سواها. حدثتني نفسي: «ضُمّها إلى صدرك الآن». «بل اشدد على ضمها كي تكونا جسداً واحداً، وتحسس هذا الذي تحت حجابها، وأطلق لمساتك على شفاهها، وجبينها، وخديها». صرت أعلم يقيناً أني أعشقها، كنت أذوب في ثناياها كلما مرت، أو نظرت، أو همست، فكيف الحال وهي بين يدي الآن؟ تستأذنني في أن أقطف ثمرتها، أن أنصب نفسي ملكاً على عرش قلبها. سكتت لتنتظر ردي، لتنتظر إعلان حبي، غير أن كلماتي التي خذلت قلبها صفعتها على غير إرادة مني.

قلت: ولكني لا أحبك!

نعم أكن لك إحساساً رقيقاً، غير أنه ليس بحب الرجل للمرأة.

صمت.

قطرات من الدمع تساقطت.

لم أدرك هل أنا الذي تحدثت أم أحمق آخر غيري، ماذا قلت؟! حدثت نفسي طالباً إياها أن تعود أدراجها سريعاً، أن تصحح ما كان، أردت أن أطلع حبيبتي على هذا السر الذي طال احتفاظ قلبي به، أردت أن أعلمها كم أني أحبها، ليس أنا الذي تكلم في هذه اللحظة، حاولت ان أراجعها في ما قالت، وأن أصرخ في السكون قائلاً: أحبك، أن أحطم ثقلاً كان يلجم لساني كلما أردت أن أفصح عن عشقي.

صمت لم يطل بي وبها. تركتها وذهبت، وفور أن عدت لمنزلي،

دخلت لغرفتي وألقيت نفسي على سريري وانهمرت في البكاء، لماذا لم أخبرها؟!، هل عجز لساني عن نطق كلمة من ثلاثة أحرف؟ هل ذكرى الأستاذ الذي عذبني في الابتدائية ما زالت تأسر عقلي؟ أم أن مفاهيم الحرام والحلال هي التي منعتني؟ أي عذاب هذا الذي يمنعني عن ضمها، ويلقي بي في عذاب أشد؟ وأي حرام في عشق تحومه لمسات الطفولة البريئة؟ حتى وإن لم تكن بريئة، فأي قانون يمنع عاشقين أن يجتمعا على كلمة أحبك؟

حدث الصدام بين دين الإخوان ودين الحب، فكيف لي أن أرى الحبيبة ذنباً يجب التوبة منه، وأن أرى المرأة معصية تسير على الأرض؟ هي كائن يسير خلف الرجل، وخلفه بمراحل، ولو اقتربت من الرجل كانت أول الطريق للوصول لجهنم التي لا تبقي ولا تذر، غير أن هذا الصدام دائما ما كان ينتصر فيه دين الإخوان. كان من المستعصي على هذا القلب أن يتخطى خرافات العقاب اللحظي. كنت أرفض الحب لا عن قناعة بدينهم، كنت أرفض الحب خوفاً من العقاب الذي أصله في عقيدتي تعذيبي في المدرسة الابتدائية، وترهيب الخطباء لنا من الإقدام على الخطيئة. غير أن هذا الخوف من الحب العذري السامي أحالني إلى عالمي السري بحبه الحيواني وفقط. حاولت أن أحدث بعض إخوتي داخل دائرة الإخوان في مسألة الحب وما يختلج صدري من رغبات. لكن تلك المحاولات لم تكن ذات فائدة. فالمسألة دائماً ما تنتهي بالتأكيد على ضرورة الصبر وغض البصر وتجنب التفكير في مثل تلك الأشياء التي لن تكون عاقبتها سوى غضب الرب في الدنيا والآخرة.

* * *

تحول الضغط في دائرتي داخل الإخوان إلى انفجار في دائرتي السرية، وأدركت عوالم أخرى أعطتني إحساساً باللذة. لم أكن أعرف إن كان شبيهاً بإحساس الجنس أم لا؟، غير أنه إحساس كان يشعرني بالمتعة. سمعت بعض الأصدقاء في مدرستي يتحدثون عن هذا الأمر الذي يأتيه المراهق عن طريق مداعبة حيوانه فيثار ليصل إلى ذروة من اللذة لا تقارنها لذة، أتيت هذا الأمر مرة وأخرى ومرات، ومع أنني كنت أجلد ذاتي كل مرة أمارس فيها تلك العادة ـ التي لا أعلم لماذا سموها بـ«السرية» رغم أن مراهقي البشر جميعا يمارسونها ـ إلا أنني كنت أعود فآتيها، حتى أضحت من كثرة إتيانها مسألة حياتية عادية! بيد أني لم أنتبه إلى أن تلك العادة كانت في كل مرة آتيها تقتل بقايا هذا الحب العذري بفعل الإحساس اللانهائي بالذنب، وكانت تحيل المرأة في نظري لأداة للجنس وفقط، فالمرأة خلقت كي نمارس ـ نحن الرجال ـ الجنس معها، هي فقط وعاء للذة.

أذكر قول شيوخنا إن من يحفظ نفسه في الدنيا فله في الجنة سبعون من الحور العين يمارس معهن الجنس. هذا الكلام كان يزيد تأصيل الفكرة في ذهني، فالإله هنا وضع المرأة كثواب للطائعين ليمارسوا معها ما حفظوا الإله فيه في الدنيا، إذن فالمرأة أداة للجنس وفقط، وإن كان هذا الأمر مختصاً بالإنسان كأصل سواء كان ذكراً أم أنثى فلم لم يرد القول إن هناك أيضاً سبعين من الذكور الحسان للمرأة لتمارس معهم الجنس. تلك الفرضية أصلت في ذهني أن الثواب للرجال وفقط، أما النساء فهم خدام للرجل في الدنيا والآخرة. زاد اختراقي لهذا العالم الحسي وزاد تشبثي به، ومعه قلت معاني الحب بعذريته وتوحشت النظرة للمرأة على أنها أداة للجنس.

كنت أُثار من أي أنثى تسير أمامي، مهما كانت سنها، ومهما كان جمالها، فلا معيار للجمال والقبح عندي، فالنساء كلهن جميلات طالما يقدرن على ممارسة الجنس. احتل هذا الأمر حياتي السرية، واحتلت التوبة من هذا الأمر حياتي العلنية في دائرة الإخوان، فكنت أداعب حيواني ليلاً فأفرغ شهوتي ومن ثم أغتسل وأتوضأ وأصلي ركعتي التوبة مستغفراً الإله من تلك الكبيرة التي حتماً ستقودني إلى النار. غير أن هذا الذي كنت أعده ذنباً كان معصيتي الأولى التي قادتني إلى معاصي أخرى ساعدت في تحلّلي من هذا التيار، فالإخوان كما أسلفت، يصلون بالعضو في إحدى مراحل تربيتهم إلى أن يربط بين الجماعة والدين حتى يحصل المزج الذي يصعب على الإخواني حينها أن يفصل بينهما، حتى إذا أردت أن تخرج من الجماعة بعد هذا الربط فعليك أن تتحلل من الدين نفسه، أن تتفكك من تعاليمه فإن أنت تخلصت بالكلية من ربقة الاثنين، حينها من الممكن أن ترى الصورة بتجرد أكبر يمكنك من أن تدرك ما الذي كان، وما الذي يجب أن يكون، دون أن يشوب الدين شائبة اسمها الإخوان المسلمين. الإخوان يربونك على أنهم يمثلون الطاعة، حتى إذا أردت التحلل من ربقتهم فلن تجد سوى طريق المعصية سبيلاً.

كان من المستحيل أن يجمعني حوار بأحدهم لأخبره معضلتي تلك، فهذا أمر جلل. لم أكن أدرك حينها ما سر تجنب الخوض في مثل تلك الأمور الجنسية، فهي من المحرمات فعلاً وقولاً، غير أن هؤلاء ممن حرموها لا يدركون أن غريزتنا سوف تدفعنا لخوض غمار هذا الأمر في عوالم أخرى، ربما تكون سليمة ولكنها في أغلب الأحوال

ما تكون غير مقوّمة. تلك الفترة التي بدأت أستشعر فيها رغباتي كانت فترة أشد ألماً على القلب من أية فترة حياتية أخرى، ذلك أنني أرغب في أمور هي طريق للجحيم، وفي الحين ذاته لا أملك القدرة على نبذ تلك الأفكار عن مخيلتي. لقد ظللت سنوات أحلم أني أقبل امرأة، وأتخيل هذا الأمر، وعندما حصلت على قبلتي الأولى وجدت الأمر على غير ما تخيلت، وليس في حاجة لأن أضيع كل تلك السنين وأن أعطل تفكيري على هذا الأمر، حتى وإن شعرت بالمتعة فهي متعة لا تستوجب أن تقف الحياة لسنوات حتى أفعلها. ما المانع في فتح مثل تلك الحوارات معنا كأطفال ومراهقين فيما يخص الجنس؟ كيف بنا نحرم أمراً ونعاقب على الإتيان به ونكيل العذاب لمقترفيه دون حتى أن يتم التعريف بتلك الأمور؟! لماذا نشعر بهذا الأمر؟ لماذا لا نقدر على تجنب التفكير فيه؟ لم تلك الرغبة القاتلة في الإتيان بأحد أفعاله؟ ولم تلك الطلاسم والألغاز التي تحيط به؟ كأنها إحدى أساطير الماضي السحيق التي من المتعذر الخوض فيها، غير أن كبتهم لتلك الرغبة ومحاولات القضاء عليها عن طريق الإكثار من الصلاة والقيام والصيام وقراءة القرآن وغيرها من الوسائل والتي كانت جميعها تسعى لقتل النتيجة دون أن تخوض في الأسباب التي دفعت بالرغبة الجنسية لهذا الطريق، تلك المحاولات دائماً ما باءت بالفشل.

زاد ارتباطي بهذا العالم السري كبديل عن تلك المرأة المحرمة، فهم لم يأتوا بجديد، حرموا علينا العالم الحقيقي الذي تسمو أحاسيسه بالإنسان لينتهي إلى عالم سري يقتل فينا الإحساس بالآخر، يحولنا إلى مجرد حيوانات لا ترى سوى فريسة أمامها. لم أتعجب من تلك

الحادثة التي وقعت في إحدى ليالي العيد منذ سنوات في منطقة وسط البلد، عندما قامت مجموعة من الشباب على غير ترتيب أو استعداد بمهاجمة الفتيات والتحرش بهن وهتك أعراضهن، لو كنت هناك حينها لما تمكنت من ترجمة موقفي، هل سأكون بينهم أهتك أعراض النساء؟ أم سأكون رجلاً يدافع عن عرضه؟ ولكن مسألة الأعراض تلك ليست بذات أهمية لمراهق يحصر كل تفكيره صباح مساء في هذا الجسد الذي يكاد يقتله من شدة رغبته فيه.

قد أكون غزلت مراحل الخروج من دائرة الجماعة في مواقف عدة ذكرتها سابقاً، غير أن الجنس والمرأة هما من قتلا تلك الدائرة نهائياً. والأعجب في الأمر أنني لم أقو على تقبيل فتاة إلا بعد أن تركت دائرة الجماعة في العام 2005، كنت أعتقد أن الإتيان المادي المشترك بين شاب وفتاة لمثل تلك الأمور هو زنى يستوجب الحد، علما بأني كنت أقتل إنسانيتي في دائرتي السرية، وظننت لسنوات أنني فقط المجرم الوحيد في هذا الكون حتى اكتشفت تلك الفاجعة بعد تركي للجماعة، فجميعنا كنا هذا الحيوان، داخل الدائرة وخارجها، الجماعة وغيرها، فقبل أن تسبوا الذئاب البشرية تلك التي تنتهك أعراض الفتيات في الشارع يجب أن تكيلوا السباب لتلك التربية الدينية المحضة التي أصلت في أذهاننا أن النساء مجرد وعاء للجنس ينتفض به فرحاً حيوان الرجل.

كنت أطرب بالأصوات الجميلة، كانت تأخذني لعوالم أخرى، أشعر فيها بإنسانيتي. يعود الفضل إلى أمي في هذا الأمر، على الرغم من كون أمي وكالعديد من أمهات القرى لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها كانت فنانة، تملك ذائقة يفتقد إليها الكثير من مثقفي اليوم، ومن أمي تعلمت أن الفن والجمال فطرة غرزت في الإنسان، ومن الصعب قتلهما، غير أنه من الممكن أن تصيبهما أتربة تعيق الرؤيا لدى صاحب هذا القلب المعطوب، ورغم كوني حافظا للقرآن ودائماً ما كان يسبق اسمي لقب الشيخ أو مولانا، إلا أنني عندما كنت أقف أمام صوت جميل سواء لرجل أو امرأة كان يتلبسني شعور بالوقار، يرتقي بي نوعاً ما.

بالطبع كنت أغالب هذا الشعور على اعتبار أنه محرم داخل دائرة الإخوان، غير أن الشعور بروعة الفن كان دائماً ما يغالب دينهم، كنت أستيقظ كل يوم على صوت الراديو وهو يرسل تلك النغمات لأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب وغيرهم، كانت طقوس خاصة بأمي، بمجرد أن تستيقظ في الصباح تتوجه مباشرة إلى الراديو وتدير المؤشر وتتركه يرسل دفقاته التي تأخذ بالألباب، حتى القرآن المنبعث من الراديو كان يأخذ بالألباب على عكس القرآن الذي نسمعه في أغلب

مساجدنا، والذي يكون أقرب لنعيق الغربان، فكل من وجد في نفسه الرغبة تجرأ على الإمامة وابتلانا بصوته القميء. ولعشقي للنغم فقد نغمت أنا أيضاً، خاصة عندما كنت أقرأ القرآن، كنت أقرأ القرآن بصوت حسن، استخدم شيخي حسن قراءتي للقرآن ووظّفه في جعلي عضواً في فريق الإنشاد داخل الجماعة بالقرية.

كانت لحظات جميلة عندما تقف أمام الجميع وتبدأ في ترتيل أناشيد بنغم يعلوه الإحساس، وأنت ترى الجميع يتفاعل مع هذا الطفل ذي الصوت الرقيق. كان الإنشاد هو البديل عن الغناء الداعر المحرم في الإسلام كما علمونا، أناشيد هي أقرب للمارشات العسكرية، جميعها تتحدث عن الجهاد والقتال والدعوة في سبيل الله.

أول من ساعدني على اكتشاف موهبتي في الإنشاد كان أستاذ اللغة العربية بمدرستي الابتدائية. هو نفسه الأستاذ الذي بصق في وجهي أو هكذا أوحى لي عندما أخطأت في مسابقة المتفوقين عن غير قصد، استخدمني تلك المرة في الإنشاد أثناء حفل أقامته المدرسة احتفالاً بالمتفوقين.

من بعده، استطاع شيخي بجماعة الإخوان المسلمين استغلال هذا الأمر بالطريقة المثلي، علا نجمي وبسرعة ظهرت بصورة جيدة داخل تلك الشعبة من جماعة الإخوان، فأنا منشد معظم التجمعات واللقاءات. كنت في الصف الأول الإعدادي عندما كنت أقف في المساجد مغرداً أناشيد الصحوة الإسلامية، أو في لقاءات الإخوان المغلقة، والتي يصعب أن يحضر فيها سوى الإخوان ومحبي الإخوان.

أسعدني هذا الأمر جداً. كنت أدندن تلك الأناشيد في معظم أوقاتي حتى وإن لم يكن هناك من يسمعني. حتى وأنا أسطر تلك الكلمات الآن حضرني نشيد لم أنشده منذ عشر سنوات تقريباً وأخذت أردده، الأغرب أنني كنت أردده وكأني لازلت عضواً في جماعة الإخوان، هل لازلت أحملهم داخلي؟ أم أن النغم لا دين ولا إله له، فهو ملك للجميع؟ كنت إلى جانب الإنشاد عضواً في فريق الأشبال للتمثيل داخل الشعبة. كانت تجمعاتنا نشيطة جدّاً حتى إنك تجد الواحد منا مشتركاً في أكثر من فاعلية دون كلل أو ملل، فكلها أعمال نتقرب بها إلى الله وكلما زادت الأعمال زادت درجة القربى!. شاركت في مسرحيات كانت جميعها تدور في فلك القصص القرآني والسيرة النبوية. أذكر من الشخصيات التي قمت بتأديتها دور الفتى المؤمن في قصة «أصحاب الأخدود»، وأيضاً قمت بتأدية دور آخر عن هجرة الرسول. كنت أميل إلى تلك الأمور الفنية أكثر من اللعب والأيام الرياضية التي كانت تقيمها الجماعة. تلك الأمور كانت تقام بصورة عشوائية وغير منظمة، لم تأخذ الشكل الحرفي المطلوب. غير أنها كانت تضفي على حيواتنا ونحن أطفال لمسات من البهجة.

في العام 1998 أقامت مدرستي حفلاً غنائياً. كنت مشاركاً في هذا الحفل. أستاذ التربية الموسيقية كان في حاجة لبعض الطلبة يقيم بهم الحفل ليظهر بالصورة المناسبة أمام بعض مسئولي الوزارة ممن سيحضرون الحفل. كنت واثقاً من أدواتي فأنا منشد قريتي، جميع إخوان قريتي يقرّون بصوتي الجميل الذي يغلفه الطرب الأصيل، غير أني لم أدرك أمرين، أولهما: أن مدرستي الإعدادية كان مقرها بكفر

مجاور اسمه كفر نصار وأغلب طلابها لا يعرفونني، ثانياً: أن الحضور معظمهم أساتذة تربية موسيقية ومتخصصون في هذا المجال، ولكنني أدركت الأمرين فور أن بدأت أنشد مباشرة، ذلك أنه قد تعالت ضحكات الجميع، حتى إن أحدهم قد سقط على الأرض من شدة الضحك. تعجبت من الأمر، ربما كان عبث الطفولة الذي يغلف تلك المرحلة، نظرت إلى أستاذي غير أنه أشار لي أن أكمل، أخذت أردد النشيد في نفس الوقت الذي ظلت فيه الضحكات، شعرت أن هناك أمراً ما، غير أني لم أكن أتوقع أن صوتي بهذا السوء، الجميع في جماعتنا أخبرني أن صوتي جميل، هل كذبوا عليّ؟! إلا أنهم شيوخ، والشيوخ لا يكذبون. عدت لأكمل فقرتي، صاحب ترتيلي للنشيد بعض قطرات الدمع التي سقطت من عيني لتبلل صوتي الذي أضحى حزيناً، صرت أغنّي والجميع يضحك، وفي الخلف أنظر لأستاذي ليخبرني أن أستمر، وفي نهاية إنشادي نظرت للسماء وكانت تلك هي المرة الأولى التي تمنيت فيها أن أموت، ولم تكن الأخيرة.

لم أصدق أن صوتي بهذا السوء، وإلا ففيم كانت تلك السنوات الثلاث التي غردت فيها في معظم احتفاليات الإخوان في قريتي؟ هل كذبوا عليّ؟ لا، لا، ربما كنت مرهقاً فلم أحسن الإنشاد، وربما كان الطلبة يضحكون من شيء آخر.

لم أعد للإنشاد مرة أخرى بعد تلك الحادثة، لا أعلم لماذا؟ ربما لم أقو على أن أبلل صوتي بدمعاتي مرة أخرى! حتى قراءة القرآن بصوت منغم أوقفتها، صرت أقرأ قراءة عادية فيها من التدبّر أكثر ما فيها من الاستعراض.

مرت ثلاثة أعوام على تلك الحادثة حتى كان العام 2001 وكنت حينها في الصف الثالث الثانوي، وأثناء حضوري لصف التربية الموسيقية علمت من أستاذ المادة أن الوزارة تقيم حفلاً غنائيّاً بالاشتراك بين عدة مدارس وأننا سنشترك. دبت الطمأنينة بقلبي قليلاً عندما علمت أننا سنشترك ككورال خلف المطرب، لم أكن أود أن أمر بتجربة غنائية فاشلة أخرى. شدني الحنين مرة أخرى لهذا العالم، فقررت أن أتناسى ما كان وأن أحيا ما هو كائن. غير أن القدر أبى إلا أن يضعني تحت قدميه مرة أخرى، ذلك أننا في أحد أيام المران استعداداً للحفل حضرت مسئولة من وزارة التربية والتعليم لمتابعة المران، وأثناء ترديدنا للأغنية حدث خروج عن النص فأوقفت المسئولة المران وطلبت من كل منا أن يغني مقطوعته منفرداً. وكانت الفاجعة، هل أضع نفسي في تلك السوءة مرة أخرى، ليتني لم أشترك في هذا الأمر من بدايته، لكني أحب الموسيقى حقا ولم أكن لأفوت أمراً مثل هذا.

طلبت مني مسئولة الوزارة عن النشاط الفني أن أغني قطعة من الأغنية، وقد كان، لكنها أوقفتني مع أول كلمة، وردتني بكلمات رقيقة علمت من خلالها أن صوتي ليس جيدا، وأن هناك أموراً أخرى تقنّن الصوت، فليس بالتنغيم وفقط يكون الصوت طرباً. كان عزائي حينها أنني كورال، أسند المطرب الأساسي في غنائه، فليس مطلوباً مني أن أمتلك صوتاً جميلاً. رأيتها وهي تقوّم طريقتي في الغناء، تحدثني بشكل أكثر تخصصاً ودراية، فهمت من حديثها أن العيب ليس في الصوت، إنما العيب في تقنين الصوت، في تمرينه على هذا الأمر، وتلك التمارين والتدريبات لم يكن يهتم بها الإخوان. هناك أمور من

المحظورات، وإن اضطرت إليها الجماعة فقد تأتيها بغير اهتمام فقط من أجل سد بعض الثغرات. قد تدعي الجماعة أنها لا ترفض الفن، والموسيقى، والتصوير، وأنها تقف عوناً له لا حائلاً ضده، لكن هل فكر أحدكم يوماً أن يستوقف إخوانياً ويسأله ما نوع هذا الفن الذي تبيحه الجماعة؟!

❊ ❊ ❊

بالطبع لم يكن شيخي على علم بتلك الأمور، كنت قد أنشأت دائرتي السرية التي تسير بالتوازي مع دائرة الإخوان، تلك الدائرة السرية هي عالمي الخاص الذي لا أجده داخل تلك الجماعة. فأنا أقرأ كتباً غير التي يقرأها شباب الجماعة، أسمع موسيقى غير التي يسمعونها، أشاهد أفلاماً سينمائية غير «عمر المختار» و«الناصر صلاح الدين»، وفي أحيان أخرى كنت أغازل ابنة الجيران لأقتنص منها بضع ضحكات تنهض بهذا القلب الذي كاد أن يموت من كثرة أن أبغضوا إلينا النساء، وكيف أنهم يذكرونا دائماً بخطورة الاقتراب من هذا العالم الذي لا طائل من ورائه سوى الخسران.

كان أمراً مثيراً للدهشة والتناقض في الوقت ذاته، فأنا في الصباح أشترك مع فتيات في بروفات كلها غناء وعزف وموسيقى، وفي المساء أجلس في المسجد أقرأ القرآن وأقيم الصلوات. حتى أصدقائي في الأسرة الإخوانية كان لكل منهم حياته السرية أيضاً، وكان كل منا يتغاضى عن تصرفات الآخر في مقابل أن يتغاضى الآخر عن تصرفاته. كان لهم حبيباتهم مثلي ولهم نزواتهم وزلاتهم مثلي. أحببت هذا العالم حباً بالغاً، في دينهم يسمونه نفاقاً، وفي ديني

أسميه «هكذا يحيا الإنسان»، فكل ما يدخل السرور على هذا القلب هو حلال، طالما لم يضرّ الآخرين. وتذكرت مقولة أحد شيوخ الأزهر عندما قال: «آتوني بما ينفع الناس وأنا آتيكم بالدليل الذي يؤيده من القرآن والسنة».

وفي الليلة المنشودة التي أقيم فيها الحفل على مسرح المدرسة السعيدية بالجيزة وحضره حينها محافظ الجيزة، كنت أشعر وكأني إنسان غير الإنسان، وكأني تبدلت لشخص آخر. هذا العالم الذي أحيا داخله، والذي يُحظر الاقتراب من أسواره وأنا داخل دائرة الجماعة، ها أنا أعيش الآن بين أفراده كواحد منهم، وليس مجرد متفرج من خارج الأسوار، كلما انتظمنا للاستعداد للحفل كلما انتظمت كل أركاني وتهيأت للحدث.

أين الرعشات؟! أين الخيالات؟! أين الخوف؟! هل هناك علاقة بين أن أمثل الدور الحياتي الذي أعشقه وبين ذهاب رعشات أطرافي وخوفي؟ اصطففنا على المسرح وبدأ الغناء، ومع الغناء والعزف بدأت أشعر بأن هناك إنساناً آخر يحل في هذا الجسد مع كل مقطع موسيقي وكل نوتة موسيقية تعزف، هل حلّ في جسدي جسد آخر غيره؟ هل حلّت بي روح أخرى؟ أم أني تطهّرت من عبودية الماضي فوجدت نفسي؟ لكن ما فات أيقظ في نفسي التساؤلات من جديد. ذلك أن نفسي روادتني عن سؤال ما، كيف رآني شباب الإخوان منشداً أملك الصوت الحسن؟!

منذ بضعة أشهر وقبل انتخابات الرئاسة 2012 انتشر على اليوتيوب فيديو لمنشد إخواني يغني من أجل الدكتور محمد مرسي، مرشح الإخوان المسلمين. كان صوته في منتهى السوء، وأخذ الجميع يتندر على هذا الصوت، غير أن أحدكم لم ينتبه إلى أن هذا المنشد كان يصدق

نفسه بالفعل، لو نظرنا إلى تعابير وجهه لوجدناه يستشعر كل كلمة يقولها حتى إنه كاد يبكي من فرط اللذة في مواطن عدة في النشيد. كان النشطاء يتداولون الفيديو على شبكة الإنترنت للسخرية، في الوقت الذي كنت أجلس فيه مع نفسي لأعيد تقييم الماضي، أعادني الفيديو لمنشد آخر عاش سنوات يظن أنه عبد الحليم حافظ، حتى اكتشف بمجرد أن ساقته الظروف في طريق أناس أكثر تخصصاً أنه إنسان عادي، إلا أنه عاشق للموسيقى ويملك ذائقة فنية وفقط، غير أنه لا يصلح أن يكون مطرباً، هو بالكاد يصلح أن يكون سنيداً، كورال يساعد المطرب الفنان والموهوب بحق. الإخوان لم يكذبوا عليّ عندما أخبروني أني أملك صوتاً جميلاً، ذلك أن الفن في مرتبة متأخرة جداً، وقد لا تكون له من الأصل مرتبة ولا منزلة. لهذا تساوى لديهم المطرب والسنيد، وتبدلت الأماكن بكل سهولة لنجد من لا يستحق في المكان غير المناسب.

هدم تلك الفرضية التي زرعها في نفسي الإخوان ساعد في هدم فرضيات أخرى، وهي أن رؤيتهم تلاشت أمام أول إنسان متخصص، يفهم دوره ويدرك ما يناط به، أو بدقة أكثر إنسان يعي أين يضع خطواته. عندما تحاور إخوانياً وتجده يصدق نفسه بالكلية لا تتعجب، فإن كنت أنت ترى أنه لا يفهم، فاعلم أن هناك ملايين الإخوان يؤيدونه في كونه يفهم، لكنهم لا يؤيدونه لأنه فنان أو مطرب أو مسرحي أو ذو بصيرة، هم فقط يؤيدونه لأنه إخوان مسلمين.

انتهى الحفل ومع آخر أغنياته وقف الحضور واشتد التصفيق، كانت متعة لا تعادلها متعة، متعة أنك قدمت أمراً تحبه، وفي نفس الوقت هناك من يهنئك ولا ينهرك، بل ويهنئك بشدة ولا يكفرك.

* * *

كنت قد اشتريت أيام الجامعة أحد أشرطة الكاسيت والذي يحوي خطبة لأحد الدعاة المشهورين والمحسوبين على التيار المعتدل، كان يتحدث في تلك الخطبة عن القراءة وأهميتها، وأخذ الشيخ يصنف أولويات القراءة، لم ترُق لي كلماته، فالقراءة لا تقيدها أولويات، أخذ يعدد تلك الأولويات بادئاً من القرآن الكريم بالطبع، ثم كتب الحديث فالفقه فالسيرة، وذكر عشر مراتب للقراءة، وكان الأدب في المرتبة العاشرة، بل وشدد على عدم الانجراف في تلك القراءة الأدبية إلا فيما يخدم المراتب الأخرى، ذلك أنها قراءة غير ذات أهمية.

كان هذا الكلام يسبب لي ألماً لكوني أعشق الأدب بكل درجاته، خاصة فن الرواية، بل إنني أزيد في انحلالي وفسقي وأقرأ آداباً مترجمة لروائيين كفّار وملاحدة! حاولت أن ألتزم بما ورد في تلك الخطبة وقررت أن أنفض عني هذا الذنب، توجهت إلى مكتبات الأزهر واشتريت عدة مجلدات في الفقه والسيرة والتفاسير وعدت بها للمنزل، وضعتها أمامي وحاولت جاهداً أن أقرأ ما قال عنه الشيخ إنه الفلاح، أمسكت بأول كتاب وكان في السيرة النبوية للشيخ الليبي محمد على الصلابي بعد أن قرأت بضع صفحات وجدت الشيخ فجأة قد خرج عن السياق وأرسل كلمات تكفيرية وجهها إلى التيار العلماني.

فور أن وقعت عيناي على تلك الكلمات قمت بإغلاق الكتاب، أمسكت الآخر فكان على نفس النهج التكفيري، الرافض لكل ما هو اختلاف، ويا ليت الرفض خلاف في الرأي أو الرؤية، إنما كانت تلك الكتب مثل سيرة الصلابي وكتابات القرضاوي خاصة في سلسلة كتبه عن «الحل الإسلامي لأزمة العالم المسلم المعاصر» تصور أن الخلاف عقائدي.

تركت تلك القراءات وذهبت إلى المكتبة واشتريت رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، كانت قد صدرت منها طبعة حديثة عن دار الشروق بعد سنوات من المنع، ذهبت إلى درس القرآن وأنا أحمل في يدي تلك الرواية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أجهر فيها بميولي في القراءة المخالفة لما يقرأون، فما كان من زملاء الحلقة إلا أن نهروني لأنني اشتريت رواية لهذا الأديب الكافر، ومال عليّ أحدهم وأخبرني أن هناك كتاباً لأحد شيوخ السعودية صدر حديثاً يتحدث عن الكتب التي حذر منها العلماء، وكان يحمل في يده أحد تلك الأجزاء. أعطاني الكتاب وكان بعنوان «كتب حذر منها العلماء» لكي أقرأه وأنقذ نفسي من تلك الضلالات، كعادتي نظرت في الفهرس أولاً، فصدمت عندما وجدت أن أحد كتب الشيخ محمد الغزالي قد وُضع ضمن تلك الكتب التي «حذر منها العلماء»، كتاب (هموم داعية). لقد تعدّى الأمر مجرد الروايات والقصص وصارت حتى الكتب الدينية محل نقد، هذا الدين يصلح وهذا الدين لا يصلح. لكن أي علماء هؤلاء من أعطوا أنفسهم الحق في تحديد من يصلح ومن لا يصلح من العلماء؟ وفي تلك اللحظة بدأ السلفيون يتداخلون على خطوط حياتي بجوار الإخوان.

كان يملك قدرة لا تبارى في استحضار البكاء، لم يفوت ملتقى ولا تجمعاً إلا وحضر، ولم يفوت لحظة استحضار لتجليات الروح إلا بكى، حتى وإن لم يكن هناك مدعاة لاستحضار تلك التجليات، يكفي أن تقرأ عليه بضع آيات من القرآن أو أن تطفئ الأنوار وترفع يديك إلى السماء مبتهلاً بالدعاء وعليه هو أن يذرف الدموع. كنت أغتاظ منه في أوقات عدة، بل في كل الأوقات، فأنا لا أبكي في تجمعاتهم، على الرغم من كوني ذي قابلية للبكاء لا تقارن، فأنا بكيت لأنني رأيت شحاذاً في الشارع مشفقاً على حالة، بكيت لأن أستاذ اللغة العربية أرسل لي شبه بصقة، أما أن أبكي خشية من الله، أن أبكي لأنني بين يدي الله، أن أبكي لأن أحدهم نظم بضعة سطور من الأدعية المقفاة وألقاها بصوت عذب، أن أبكي لأن البكاء من خشية الله يدخل الجنة. ألم أكن مثل هذا الشاب الذي ملأ الدنيا ببكائه؟

هو أحد شباب جماعة الإخوان الذين انضمّوا في نفس توقيت انضمامي، كنت إذا شاهدته في أحد تجمعاتنا قلت في سري ها قد حضر البكَاء. قلت ربما أن قلب هذا الشابّ أكثر رهافة من الجميع، فهو وبضعة آخرين فقط من يبكون، غير أني وفي محاضرة دينية

للداعية عمرو خالد، وقد كان أحد الدعاة الصاعدين بقوة على ساحة الدعوة في العام 2002، كنت أقف للصلاة خلف الإمام وأمام ما لا يقل عن 30 ألف مصل رافعاً يدي للتأمين على دعاء الإمام. كنت على عكس الجميع، جميعهم يبكون بكاء أشد من هذا الشاب البَكّاء الذي أغبطه على خشيته، اشتد بكاء الحضور حتى شعرت بالرجل الذي بجواري وكأن روحه قد قاربت على فراق جسده أو كادت من شدة ما بكى، وفي خضم تلك الدموع التي أغرقت الحضور كنت أقف متسائلا، لماذا لا أبكي؟ وكان سؤالاً دارت رحاه في حياتي طويلاً، هل لا أملك خشيتهم؟ هل لا أملك إيمانهم؟ أم أنني لا أملك دموعاً من الأساس؟

كانت حياتنا للدعوة، وبالدعوة، كنا نحيا حيوات غير حيواتنا، فيجب أن نكون كأبي بكر في رقة قلبه، وعمر بن الخطاب في شدته من أجل الحق، وأسامة بن زيد الذي قاد جيشاً وهو ابن خمسة عشر عاماً، أرادوا لي حياة أخرى، وأردت أنا حياتي التي بين جنبات هذا الجسد. كان الألم يعتصرني من أجل استحضار الخشية، من أجل استجلاء الحب الذي ظننت أنه مغطى ببعض الأتربة التي إن تمت إزالتها تحقق المراد.

وفي ليلة من تلك الليالي التي كنت أقيمها بالصلاة وقراءة القرآن شددت على نفسي بالبكاء، اعتصرت عيني كي يفيض دمعها، أطلت الوقوف والركوع والسجود، صليت ركعتين بسورة البقرة كاملة، أردت استحضار تلك الخشية، أردت استحضار الحب الإلهي، وبعد طول معاناة ذرفت بضع دمعات سالت على وجهي، بضع دمعات لكنهم

أشعروني بغصة في الحلق أفقدتني توازني، تلمست الألم، ولكني لم أتلمس الخشية أو الحب، تلمست الألم في العين، غير أني لم أتلمس النور في القلب. تمثّل البكاء لدي في صورة الإحساس والشعور الذي أنتظره، فإن جاء جئت، وإن غاب غبت، لقد أسلمت بانضمامي لجماعة الإخوان، أنا الآن في زمرة المؤمنين، تلك الفرقة الناجية من النار، فلماذا إذن لم أستشعرهم بعد؟

جاءتني إجابات عدة من المشايخ والإخوة، غير أنها لم تلمس بيت القصيد، قلت لنفسي إنه وقبل أن تطلب مني عملاً يجب أن تتيقن أولاً إن كنت أملك القدرة على الإتيان به من عدمه، حتى وإن ملكت القدرة فيجب أيضاً أن أملك المعرفة. تذكرت تلك الأمور التي كان من المفترض أن أفعلها، أنا الآن طفل في المدرسة الإعدادية ومطلوب مني ألا أكون في درجة أقل من أسامة بن زيد أو علي بن أبي طالب أو عمرو بن الجمُوح، كلهم كانوا في سني يسبقونني بعام أو عامين غير أنهم كانوا أبطالاً، وكانوا دعاة.

كنا نقف في المساجد ونحن أطفال نتصدر المشهد أمام المصلين، نمسك بالميكرفون ونحمد الله على فضله ونثني عليه ونسبّحه ونخطب في الحضور مطالبين إياهم بتقوى الله، أطالبهم بشيء أنا أصلاً لا أعرفه، كنت أتساءل: ما المغزى أن نتصدر المشهد؟ أكان من أجل أن يتعجب المسلمون من هؤلاء الصغار الذين أتوا ما لم يأته أحد من العالمين؟ إن كان فنحن إذاً نقوم بما لا يقوى عليه بشر، وليس بمفروض على المسلم الطبيعي، وإن لم يكن فإن هناك عواراً في هذا الدين لا يتناسب مع قدرات الأطفال ومراعاة تطورات القدرة على التحمل مع اختلاف

الزمان والمكان، فأسامة بن زيد من نشأ في الصحراء وبين عشرات الآلاف من الصحابة من المحال أن تقارنه بطفل تربى على مسلسلات الكارتون وقصص ميكي.

عندما كنت في الصف الثاني الثانوي طلب مني شيخي أن أساعده على تحفيظ القرآن في كتّاب القرية، فكنت طفلاً يحفظ أطفالاً، ولم يعفني من هذا الأمر إلا أنني في لحظة انفعال قمت بسب إحدى الفتيات اللاتي كنت أحفظهن فتم إعفائي من تلك المهمة الجليلة التي رأوا أني خسرت كثيراً بفقدها.

بعد عام ونصف من تلك الحادثة طلب مني أن أتصدر الإمامة في أحد المساجد على اعتبار أني حافظ للقرآن، اعتقدت الأمر هيناً فقبلت، أذّن المؤذن لصلاة الفجر فتوجهت للمسجد وأعددت نفسي للصلاة، وقفت أمام القبلة منتصباً ورفعت يدي في محاذاة أذني واستحضرت جلال المشهد وقلت: الله أكبر، مؤذناً ببدء الصلاة، وكانت تلك التكبيرة هي الشيء الوحيد الذي قلته في تلك الصلاة. شعرت بأن أمراً أخذني وضرب بي الحائط فردني إلى مكاني ومن ثم تكرر الأمر، الأخذ والضرب فالرد وأنا أقف مذهولاً من هول الموقف، فليس الأمر بالهين، ليس مجرد وقوف ولا حركات تؤدي، ولا كلمات تخرج منغمة في الصلاة. من الوارد أن ينسى الإمام آية أو كلمة من السورة التي تلي الفاتحة، أما أنا فنسيت الفاتحة نفسها. وقفت هنيهة، أصابني الذعر، أين الفاتحة؟ أين ما كنت أحفظه عن ظهر قلب؟ وجدت الأصوات ترسل من خلفي تباعاً مذكرة إياي، وأخذ المصلون خلفي يذكرونني بالفاتحة آية آية، ثم جاءت السورة التي تليها، فاخترت بضع آيات من

سورة البقرة كنا نرددها دائماً في أوراد يومية وهي سهلة الحفظ، غير أني أيضا نسيتها، ولكن لم يردني أحد كما ردوني في الفاتحة، هم يحفظون الفاتحة وفقط، لو كان أحدهم يحفظ سوراً أخرى ما تصدرت أنا للمشهد، طال الصمت، فتركت آيات سورة البقرة واستعنت بآيات من سورة النساء، وأنهيت الركعة الأولى، أما الركعة الثانية من صلاة الفجر فلا أتذكر ما كان، وكأن تلك الصلاة كانت ركعة واحدة وفقط.

أنّبت نفسي على ضعفي ومعصيتي، فأنا من سيصلى نار جهنم، أنا وقودها، فلا بكاء ولا خشية ولا قرآن ولا صلاة. وفي يوم ضاقت علي الأرض بما رحبت دخلت غرفتي وأغلقت بابها وألقيت هذا الجسمان الميت على السرير ولم أستطع حينها أن أمنع هذا السيل من الدمع المنهمر، وجهت وجهي لأعلى وكأني أخاطب السماء وصرخت قائلاً: أين أنت؟ هل تتلذذ بتعذيبي؟ لماذا خلقتني إن كنت ترفضني؟ لماذا أتيت بي إلى تلك الدنيا إن لم أكن أهلا لها؟ إن كنتَ راضياً عني فأعنّي على نفسي، وإن كنت تبغضني فخذ روحي الآن، لا فرق عندي بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكلهم في الأصل جحيم.

وبكيت، غير أني لم أبك خشية، ولا طاعة، بكيت شفقة على حالي، وفي تلك اللحظة التي انتظرت فيها الدمع طويلا لأستشعر لذة الطاعة والخشية من الإله وجدتني أبكي ولكن لا لأزيد الوصل، إنما لأروي بدمعي بذرة الترك التي أخذت تدب في أوصالي وتشرع في نشر جذورها في جنبات هذا الجسد. بذرة تصارع من أجل الخروج، لتصير من ثم شجرة أجهزت بثقلها على خرافات تربيت عليها، خرافة أنني يجب أن أعيش حياة أخرى غير حياتي فقط لأنهم المبشرون بالجنة.

لن أكون زيداً ولا عمر ولا أبا بكر، فقط أريد أن أكون أنا، قد أنظر لهؤلاء نظرة من يتلمس طريقه مهتدياً نورهم في الحياة، لكن ليست نظرة الممثل الذي يحيا دوراً آخر غير الدور المنوط به في الحياة.

أدركت أن المسألة ليست في كوني لا أملك خشيتهم، أو أنني لا أملك طاعتهم، أنا فقط أرى أنه من البلاهة أن أبكي من خشية إله لا أعرفه، أن أطيع ربّاً لم أدركه بعد. كنت أتعجب من بعض القصص التي تُحكى لنا ونحن نرى الراوي يكاد يبكي من فرط اللذة من روعة هذا الرجل أو تلك المرأة من السلف الصالح ممن عرفوا الله وأدركوا عظمته، وجميع تلك القصص على هذا المنوال، ولم يكلف أحدهم نفسه ولو للحظة أن يسأل نفسه وماذا بعد؟ هم كانوا عظماء لأنهم أدركوا كنه الإله، أما نحن فنصنع عظمتنا على إدراكهم هم وليس إدراكنا نحن، بئس الإيمان هذا.

كانت تفرض علينا نوعيات معينة من الكتب. فرج فودة ونصر حامد أبو زيد وجمال البنا وآخرون كثيرون تُمنع قراءتهم «تجنبا للفتنة». أية فتنة تلك التي تجعلني كمثل الحمار يحمل أسفاراً؟ الصوفية مبتدعة ودراويش، أما السلفيون فهم شديدو الجانب، يضيقون على الناس، إن أردت أن تدرك الإيمان الحق فيجب أن تقرأ كتابات سطرها الإخوان، تلك الكتابات التي لا تزيد في معظمها عن مواعظ ونصائح حماسية لا تسمن ولا تغني من جوع.

هل فكر أحدكم يوماً أن يسأل نفسه: من خلق الكون؟ وكيف خلقه؟ وإن صدقت أن الكون لم يخلق من العدم وأن الله هو خالقه وأنه لابد من خالق فمن خلق الله؟ وإن قلت هو الأزلي فأنت تضرب بعرض

الحائط أنه لا يوجد خلق من العدم، فالله خالق وليس مخلوقاً. جرب وحاول أن تسأل وفقط، أنا لا أطلب منك أن تتنظر إجابة، أتمنى لك أن تملك رفاهية السؤال، تلك أسئلة من المحرمات، بل يهوي بها الإنسان في النار سبعين خريفاً، أنت تطلب مني أن أبكي خشية من عظمة إله لا أعرفه، أنا فقط مطالب أن أصدق على كلمات من عرفوه منذ أكثر من ألف عام.

* * *

رآني إمام المسجد وأنا أبكي، اقترب مني وسأل، غير أني لم أجد إجابة، سكت هنيهة ثم أعاد السؤال: هل أنت إخوان؟! تعجبت له أن يعلم، فترددي على هذا المسجد حديث، ولم يحدث بيننا حوار سابق.

الحالة الإيمانية التي كانت تحوط جدارن هذا المسجد كانت تأسرني، كان قد مر شهر وأنا أصلي صلواتي خارج القرية، في أحد المساجد على أطرافها. كنت قد بدأت التغيب عن جلسات الأسرة الأسبوعية داخل دائرة الإخوان، وعلى غير العادة لم يهتم أحد، وكأنهم كانوا ينتظرون، فمسألة تمردي بالنسبة إليهم كانت مسألة وقت ليس إلا، فراغ قاتل تركته في نفسي أعراض انسحابي من الجماعة، منذ الصغر وأنا بينهم، أصدقائي، إخوتي، شيوخي، من علموني، ذكرياتي الحلوة، والمرة، لحظاتي جميعها كانت بينهم، لم يكن لي عالم آخر، كان تمردي على الطاعة العمياء وعلى قتل تلك الأمور التي أحبها دون سبب، غير أني حتى ذلك الوقت كنت لا أزال أعشق البنا وأدين بالفضل لتلك الجماعة.

بمجرد أن سال دمعي شعرت وكأن أمراً جلياً انزاح عن صدري، وتلمست انشراحة تلبستني، أخذتني لعوالم أخرى أهدأ حالاً من تلك التي كنت أحياها لستِّ سنوات مضت. تلقفني هذا الشيخ ولكنه كان على النقيض من تلقف شيخي الإخواني سابقاً، كان أستاذاً في الجامعة، تخصص في علوم اللغة، وكان أحد أتباع الطريقة الصوفية، وكان عاشقاً للقراءة، هو أول من علمني كيف أختار كتابي، وكيف أبحث معتمداً على نفسي لا على كلام الشيوخ. كنت أقرأ في أحد الكتب وقرأت حديثاً نبوياً شعرت بأن عقلي يرفضه، فلما سألته أخذ يدي إلى المكتبة ودربني على كيفية استخراج الأحاديث من كتبها الأم، عن طريق أحد المعاجم المفهرسة لكتب الأحاديث حتى أصبحت أتجول بين صحيح البخاري ومسلم وابن ماجة ومسند ابن حنبل وكتب التفاسير. وتعجبت من كم تلك الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي تربينا على أنها أسس لا حيد عنها. أذكر أنني اتبعت تلك الطريقة في إحدى تلك المسابقات التي كان يقيمها الإخوان عن طريق بضعة أسئلة تسطر على ورق يوزع علينا داخل الدوائر عبارة عن أجزاء من أحاديث وعلينا أن نكملها. عندما اتبعت تلك الطريقة مع تلك المسابقة وجدت أن جميع تلك الأحاديث هي أحاديث ضعّفها العلماء، في الوقت الذي كنا نتربى فيه على أنها من المسلمات.

هو أول من أصّل في نفسي ألا أضع كلام أي كتاب محل تصديق إلا قبل أن أعود إلى المصدر بنفسي، حتى آيات القرآن التي يستعين بها الكاتب في كتابه كنت أعود للقرآن لأتأكد منها. كان يقيم هذا الشيخ مسابقات هو أيضاً، ولكنها هي الأخرى مختلفة، طلب منا فيها إنشاء

مؤلف مصغر عن غزوة أحد، وكان أول شيء أسطره بقلمي وكنت حينها في نهاية دراستي الثانوية. حصل مؤلفي على المركز الأول، غير أن شيخي قبل أن يعلن الجائزة قال إنني أستحقها ليس لأن العمل يستحق، لكن لأنه أفضل الأسوأ. كنت قد سطرت البحث بطريقتي الإخوانية تلك التي تعتمد على النقل من هنا وهناك دون التيقن من صحة الكلام ودون إرهاق النفس في البحث عن المصادر، قال الشيخ إنه يجب أن أعود إلى المصدر وأن أتأكد من صحته وأن يكون لي حيز من التأليف داخل العمل أضع فيه رأياً وأن أكون أميناً في النقل فلا أنقل أمراً دون أن أنسبه لصاحبه.

كنت قبل ان أدخل هذا العالم أتمرد وفقط، أرفض دون أن يكون لي رد فعل أو أن أنتهج طريقاً عملياً آخر غير هذا الذي اعترضت عليه، أما بعد أن دخل عالمي هذا الشيخ أضحيت متمرداً باحثاً، لا متمرداً خاملاً، وألقيت عني تكليفات الإخوان، فلا لقاءات ولا مشاركة في فعاليات ولا مناصرة في مواقفهم السياسية ولا ندوات ومؤتمرات كما السابق غير أني لم ألق عن كاهلي تعاليمهم ودينهم، فأنا لا زلت مسلماً إخوانياً.

وكما أن المسجد كان بداية الرحلة عندما أدار لي شيخي الإخواني ناظره بعين الاهتمام، كان المسجد أيضاً نقطة تحول على طريق تلك الرحلة، وكانت أهم نقطة تحول في حياتي. ضربت فيها بعرض الحائط الكثير مما تعلمته، ووجدتني أعود من نقطة البداية مرة أخرى. في هذا المسجد كانت توجد حلقة لتحفيظ القرآن، دخلت عليها بثقة الحافظ، قال لي المحفظ اقرأ، قلت أقرأ من سورة البقرة فأمّن على كلامي، أنا

أحفظ سورة البقرة عن ظهر قلب، غير أني لم أتمكن من قراءة حتى الحروف الثلاثة في الآية الأولى، ذلك أن المحفظ ردني في البسملة، ظللت لدقائق لا أقدر على قراءة البسملة بطريقة سليمة، كيف بتلك السنين التي كنت فيها أقرأ القرآن في أغلب التجمعات، ولم يكن يردني أحدهم؟

أعطاني هذا المسجد وشيخه الطريقة السليمة لتحصيل العلم، غير أنهما لم يعوضاني عن أمر مهم، هو مفهوم الأسرة الإخواني. أنا الآن أعيش منفرداً أشعر بهذا الخواء العاطفي الذي كان يملأه مفهوم الأسرة داخل الإخوان، هذا المفهوم كما قلت سابقاً هو من أهم أسباب بقاء هذا التنظيم طوال تلك السنوات، يكفي أن تعلموا أنه لو مر يوم دون أن يراك الأصدقاء في المسجد فإنهم يأتونك في المساء للاطمئنان عليك، ولو أنك مرضت وجدت أن هناك أعداداً ليست بالقليلة تأتي لزيارتك والإطمئنان على صحة أخيهم، وقد تجد العشرات من الذين لم تعرفهم قبلاً وقد جاءوا لزيارتك فقط لأنك إخوان مسلمين، في أفراحك يقفون بجوارك، وكأنهم إخوتك الحقيقيون. كانت كل تصرفاتهم هي في ناظرهم عبادة، فلم يكن أحدهم يأتي أمراً ثم يتململ أو يمن عليك بفعله، بل أنت الذي تمن عليه لأنك كنت سبباً في إعطائه الحسنات، غير أن تلك الحسنات لم تكن تأخذ الشرعية إلا إذا كانت للإخوان، وطالما أنني تركتهم فلا حسنات من ورائي. أذكر أنني مرضت مرضاً شديداً بعد ثورة يناير من أثر النوم على الأرصفة والتلحف بالسماء في برد يناير القارس، وأنني ظللت طريح الفراش في بيتي لما يقارب العشرة أيام، حتى إنه لم يتسن لي أن أعود للتحرير لأشارك الأصدقاء

فرحة تنحي الرئيس السابق، غير أني في تلك الأيام العشرة لم يطرق بابي أحدهم، ولم يكترث أحد بهذا الغائب. تذكرت حينها العاطفة الأسرية التي يحتوينا بها الإخوان وقارنتها بأصدقائي من الماركسيين والعلمانيين وحتى الإسلاميين الوسطيين ممن قد تمر عليك شهور وأعوام دون أن تظهر على ساحتهم، فلا يهتم أحدهم بمجرد السؤال عنك.

هذا الذي افتقدته في تلك الدوائر والذي رحل مع دائرة الإخوان دفعني للبحث عنه في دوائر أخرى، ولم تكن أمامي سوى دائرتي السرية، ذلك أن الحب والجنس مثّلا لي حينها البديل.

أمن دولة

لم يهتم بمن حوله، ولا بكوننا نجلس في الخلاء، فقط أطلق لدمعاته العنان. تعجبت فور أن رأيته مقبلاً ناحيتي، كنا في لقاء مفتوح يقام كل فترة تجتمع فيه الأسر جميعها في أرض زراعية خاصة بأحد الأعضاء، كانت تمتاز ببعدها عن الأعين، كنا نسير مخترقين الزراعات حتى نصل لهذا المكان البعيد. دخل علينا هذا الشاب وقد أطلق لحيته على خلاف شباب الإخوان، فنحن نؤمر ألا نطلق لحانا تجنباً للصدام مع الأمن. ظهر على عينيه الإرهاق، يبدو أنه لم ينم بالأمس، جلس بجوار أحد كوادر الجماعة حينها وكنت أجلس بينهما ودون قصد طار إلى مسامعي الحوار. لم أهتم حينها بما دار بينهما من حديث، كان ما قيل معتاداً في تلك الفترة ولم نكن نملك إلا الدعاء على تلك الحكومة الكافرة، كان ذلك تقريباً في العام 2000. اقترب الشاب من الشيخ وهو يتألم مما حدث لأخيه السلفي، قال إن جهاز مباحث أمن الدولة يترصد أخاه وكثيراً ما يأتي للمنزل فجراً لاصطحابه عنوة من على سريره في غرفة نومه، وتألّم لمّا علم أنهم أجبروا أخاه على الحضور إلى مباحث أمن الدولة في ميعاد حددوه كل أسبوع ليطلعهم على أسرار إخوانه. بكى هذا الشاب لما يحدث لأخيه لمجرد أنه أطلق لحيته وانضم لإحدى الجماعات السلفية الداعية إلى الله.

عمر عبد الرحمن، يذهب الذهن عادة مع هذا الاسم إلى الشيخ عمر عبد الرحمن، فقيه الجماعة الإسلامية بأسيوط والمعتقل منذ عام 1993 في أمريكا، لكن ليس هو المقصود في هذا المقام، هو عمر عبد الرحمن آخر، تشابه اسمه مع اسم الشيخ، ولعل كون الشيخ بدأ عمله في الدعوة والخطابة في المساجد بمحافظة الفيوم هو السبب في ذلك، فصاحبنا أيضاً من الفيوم، قد نقول إن والده قد أطلق عليه الاسم تبركاً بالشيخ. كان عمر عبد الرحمن يمتلك العديد من المواهب، منها قدرته على إصلاح الأجهزة الكهربائية أياً كان العطل بحرفية فائقة، وإلى جانب ذلك كان عمر شديد الذكاء وعلى ثقافة لم أر لها مثيلاً، وإن تركزت مجملها في الديانات، إلا أنه كان يلم ببعض الجوانب من العلوم الأخرى.

قابلت عمر لأول مرة في العام 1997، كنت قد أنهيت الدراسة الابتدائية والتحقت بالتعليم الإعدادي، وكان قد مر على مرافقتي هذا الشيخ وتلك الجماعة الدينية ما يقارب العام، حضر عمر إلى منزلنا لزيارة أبي صديقه في العمل الحكومي الذي تركه منذ انضمامه للجماعات الإسلامية. كان بنفس الهيئة تلك التي أرى عليها الإرهابيين في قنوات التلفاز، اللحية الكثيفة شديدة السواد، والجلباب الأبيض الذي لم أكن أعلم حينها لماذا ينتهي صانع الملابس الذي طرّزه قبل الكعب بعدة سنتيمترات، بالسواك في جيبه، وهذا المصحف ذو الحجم الصغير في يده اليمنى، غير أنه كان مبتسماً هو الآخر مثل شيخي، على عكس ما نراه في التلفاز. منذ اللحظة الأولى بدأت علامات الاهتمام تبدو واضحة في طريقة حواره معي، بل ومحادثتي كما يحادث الرجال

في مثل سنه على الرغم من أنه يكبرني بسنوات. أذكر أنه رأى في يدي حينها رواية لتشارلز ديكنز وقال لي ناصحاً إنه من الأفضل أن أقرأ في كتاب الله أو سير الصحابة والسلف الصالح، وإن تلك الكتب ما هي إلا وقت ضائع من عمر المؤمن والذي سوف يُسأل عنه يوم القيامة، غير أن عشقي لتلك الروايات كان أكبر من أن يؤثّر فيه شخص. كان الرجل ممن أقدّرهم ولا أريد أن أغضبهم، وهؤلاء كنت أخبرهم بعزمي على تركي تلك القراءات والإنصات لكلماتهم، ومن ثم أعاود قراءتها بعيداً عنهم، ولعل تلك المداومة على قراءة تلك الأعمال من غير الكتب التي كنا نطالب بقراءتها من المشايخ هو الذي جعلني أنفض عني أفكارهم لأكون كما أردت، لا كما يريدون.

كان عمر عبد الرحمن بمثابة النافذة التي أطللت منها على سماوات أخرى من المعرفة والثقافة، وأخذ يحدثني عن الإسلام ونشأته وتطور أنظمة الحكم في دولة الإسلام وكيف أنه في العصور المتأخرة نحّى الناس الإسلام جانباً وأن هذا كان سبباً لتأخرنا وأننا الآن في آخر الصف، وكيف أن هناك أناساً قد شكلوا جماعات من المسلمين حملوا على عاتقهم مهمة إعادة هذا الأمر لسابق سنواته الأولى.

شعرت بعد لقائي عمر عبد الرحمن أنني امتلكت من أمري شيئاً، لم أكن من هواة العمل تحت راية لا أعرف حاملها ولم حملها، ولم أكن أهوى السمع والطاعة دون السؤال لمَ أسمع؟ وفيم أسمع؟ ولمن أسمع؟

وهذا ما أيّدني فيه عمر، فقد كان مثلي في التمرد على التسليم لأحد، فكل الناس بعد الله يؤخذ منهم ويرد.

انقطعت زيارات عمر عبد الرحمن، ولم يعد يأتي إلينا كما كان، وبانقطاع زياراته انقطع عني أهم مورد لإجابة كل ما يساورني من تساؤلات. سألت أبي عن سر انقطاع عمر عن زيارتنا كما كان في الماضي، فما كان من أبي إلا أن علت وجهه علامات الحزن وكفى، دونما إجابة تشفي الغليل. مر عام تلو العام، وفي يوم من تلك الأيام التي نحسبها أيام سعد ـ كون أخبارها تحمل الفرحة منذ بداية ساعاتها الأولى ـ رأيت عمر واقفاً أمامي، وأبي يتقدمه بعد أن فتح له باب الشقة، أخذت بضع دقائق لأدرك أنه هو، احتضنته وعاتبته على تلك السنين التي مرت دون أن يضع لمساته عليها، غير أني استوقفت نفسي في منتصف الحديث، وسألت سؤالاً حسبته أمراً عادياً: أين لحيتك وجلبابك الأبيض يا عمر؟! فنظر لي نظرة الحزن ذاتها التي رأيتها وقد علت وجه أبي من قبل، واكتفى بالصمت، بعد أن تساقطت بضع دمعات من عينيه أو كادت.

علمت أن مباحث أمن الدولة ألقت القبض عليه مع مجموعة من رفاقه واقتادوهم إلى مكان غير معلوم، وبدأ التعذيب، لم يقو عمر على أن يسرد لي ما كان، غير أني رأيت بعيني ما لم أكن أتوقع أن يكون، تحول عمر عن تلك المظاهر الدينية التي كان يتمسك بها وحلق لحيته وارتدى القميص والبنطال وكان هذا أمراً مستغرباً لي حينها.

* * *

بعد ثورة 25 يناير في العام 2011 حدث حراك سياسي غير معهود، وصار الجميع يتحدث في السياسة، بل ويشتغل فيها أيضاً. جاءتني

الأخبار أن مجموعة من شباب القرية التي أقطنها من خارج الإخوان ولا ينتمون لأي حزب قرروا إقامة جمعية أو تنظيم لدراسة مشكلات القرية والعمل على حلها. سعدت بهذا الحراك وانضممت لهم كما انضم العديد من أبناء قريتي، انضم بعض شباب الإخوان إلى تلك المجموعة بصفة فردية، ولم يعلن أن تلك الشعبة من الإخوان تدعم هؤلاء الشباب بشكل رسمي. مر شهر وآخر، وأعمال الشباب تكبر ويذيع صيتها على أهل القرية، بل وأثمرت نتائجها في اكتشاف حالة فساد مالي في المدرسة الإعدادية بالقرية، وتحويل المسئول إلى النيابة وكنت ممن شاركوا في الكشف عن هذا الأمر.

أخذ عمل الشباب شكلاً أكثر تنظيماً وأسست لجان عنيت كل منها بأمر من أمور القرية، وكل لجنة لها أعضاء ورئيس وكان هناك اجتماع عام نهاية كل أسبوع لتدارس الأعمال. كان عمل هؤلاء الشباب خدمياً بحتاً، ولم يتحدث أحدهم عن أمور سياسية أو حزبية. بعد مرور ما يقارب الثلاثة أشهر عمل فيها الشباب باجتهاد، وأمام صمت إخوان القرية عن الأمر رغم مشاركة بعض أفرادهم بصفة شخصية، جاءني اتصال هاتفي من أحد الشباب المشاركين في العمل وأخبرني أن أحد كوادر الإخوان بالقرية يريد أن يجتمع بنا لتنسيق العمل بين مجموعة الشباب وتلك الشعبة من الإخوان بالقرية. دبت في نفسي السعادة ذلك أن تنظيم الإخوان وقوتهم مع حماسة هؤلاء الشباب من المؤكد أنه سيصب في النهاية في مصلحة القرية وأهلها، لم أضع في الاعتبار أن مكالمة الهاتف وصلتني قبل اللقاء بنصف ساعة ـ كان من المفترض أن يكون هناك إعداد للأمر ـ ولم أهتم أيضاً أن بعضنا فقط من حضر ولم

يحضر العديد من الشباب ممن بدأوا الأمر وكان عددهم أربعة عشر شاباً.

بدأ اللقاء ببعض كلمات الترحيب بهذا العمل الذي بدأه الشباب وأن الإخوان سعداء بهذا الأمر، ومن ثم حدث فجأة على غير توقع منا أو ترتيب أن طلب منا محدثنا من جماعة الإخوان إقامة انتخابات في القرية لاختيار لجنة شعبية رسمية ترفع أسماؤها للجهة الأمنية المختصة، ذلك كي يكون عملنا رسمياً، وحتى لا تقابلنا عوائق في التعامل مع الجهات الحكومية لإنهاء الأمور المتعلقة بالقرية. تعجبت من هذا الأمر ذلك أن ما وصل إلى مسامعي أنها جلسة تعارف وتنسيق عمل بين فصيلين وليس إقامة انتخابات لاختيار لجنة رسمية. أدركت أن هناك أمراً ما خاصة أن أغلب الحضور من مجموعتنا كانوا ممن يميلون لجماعة الإخوان، وكأن الأمر معد سلفاً للتصديق على ما يقال وكأنه لا رأي لنا.

حاولت أن أضع شكوكي جانباً فالأمر أولاً وأخيراً من أجل الصالح العام للقرية، يأتي بالإخوان أو غيرهم المهم هنا أن يستفيد هؤلاء البسطاء من أهل قريتي، غير أن تلك الطريقة التي أعدها الإخوان للانتخابات أعادت الشكوك إلى نفسي مرة أخرى. طلب منا أن تكون الانتخابات يوم الخميس علماً بأن اجتماعنا بالإخوان كان يوم الثلاثاء، أي أنهم أعطونا يومين فقط للاستعداد، والأغرب من ذلك أن مجموعة الشباب التي حضرت الاجتماع صدقوا على الأمر دون أن يطلبوا وقتاً كافياً للعودة إلى باقي أصدقائهم للبت في هذا الأمر، وكانت طريقة الانتخابات نفسها غريبة، طلب منا الإخوان أن نجتمع في دار مناسبات

القرية، وأن ندعو الأهالي إلى هذا اليوم وأن تجرى الانتخابات عن طريق توزيع أوراق بيضاء على الحضور وأن يطلب من كل منهم كتابة عشرة أسماء في الورقة، والعشرة أصحاب أعلى تصويت سيكونون هم من اختارتهم القرية أبديت اعتراضي على ضيق الوقت للتجهيز غير أنهم سفهوا من تلك المسألة، فقلت لهم إن دار المناسبات تلك تقع في منطقة نفوذ الإخوان في القرية، بالإضافة إلى أن تلك الطريقة لن تأتي إلا بالإخوان، أنتم أكثر منا عدداً، أضف إلى ذلك أن معظم سكان القرية لا يعرفون الشباب القائمين على العمل وأننا حديثو عهد بهذا العمل الخدمي، وطلبت أن يكون الأمر عن طريق أن يترشح من يرى أنه الأنسب أثناء الاجتماع وأن يختار الناس من بينهم.

قلت في نفسي لو كان الأمر مغالبة سيترشح عدد لابأس به من الإخوان وهنا يظهر المقصد أما إن كان مشاركة فلا ضير، غير أن محدثنا من جماعة الإخوان هاج وماج وألقى أوراقاً كانت أمامه بعد أن عجز عن إقناعي برأيه، وأنهى الجلسة منفرداً دون احترام هؤلاء الجلوس، ورأيت أصدقائي فجأة يوجهون اللوم لي لأنني بتصرفاتي تلك أزرع الشقاق بين أبناء القرية، فما كان مني إلا أن تقهقرت للوراء واعتذرت للشيخ عن أمر لم أخطئ فيه. وانتهت الجلسة بالتصديق على كل ما قاله الإخوان، أما من حاول منا الكلام فهو يبحث عن مصلحته الشخصية ويسعى لإثارة الشقاق، كيف بنا أن نشكك في هؤلاء الشيوخ أصحاب الدعوة وفي ذمتهم ونيتهم الخيرة؟

أقيم الاجتماع في الوقت الذي حدده الإخوان وكما توقعت كان جل الحضور من الإخوان غير أن ما حدث كان على غير المتوقع،

ذلك أنه ما من انتخابات أقيمت، ذلك أن الإخوان غضبوا من هذا الأمر الذي أثرته من أني أخشى احتواءهم لتلك اللجنة بالكلية وألا يكون لنا دور حينها، فقرروا عدم إقامة أية انتخابات، معللين ذلك أنهم لا يسعون لسلطة. إثر الاجتماع نهرني أحد الشباب وكاد يضربني وطلب مني ألا أجالسهم في مجموعتهم مرة أخرى. وبعد بضعة أيام علمت أن الإخوان اختاروا أعضاء اللجنة دون الرجوع لأحد، ومع الوضع في الاعتبار قوة حشدهم وتوغلهم في القرية فمن الطبيعي ألا يعترض أحد. فتلك قرية أقرب إلى النظام القبلي. والإخوان متوغلون في معظم إن لم يكن كل عائلات القرية واعتراض أحد عليهم قد يزيد المسألة خطراً لأنك إن سلمت من سطوة الإخوان لن تسلم من سطوة العائلة والقبيلة!

علمت بعد فترة أنه كان هناك اقتراح مقدم لاحتواء مشكلة تفكك المحليات وما تسببه من ضرر، وهو أن تقوم الحكومة بإضفاء الشرعية على اللجان الشعبية الموجودة كما هي حتى يتم انتخاب أعضاء رسميين للمحليات، وترجمت على الفور سرعة الإخوان في طلبهم الاجتماع معنا ولهفتهم في إقامة الانتخابات سريعاً وبتلك الطريقة، علماً بأننا نعمل منذ ثلاثة أشهر ولم يقدم لنا الإخوان يد العون وكان ما حدث هو أول مسمار دقّ في نعش تلك الهالة من القدسية التي كنت أغلفهم بها والتي رافقتني حتى بعد أن تركت الجماعة في العام 2005.

سريعاً ما تفككت تلك المجموعة بعد أن اشترك الإخوان فجأة بكل قوتهم مع هؤلاء الشباب وبكامل تنظيمهم داخل القرية، وقاموا بإنشاء

لجنة شعبية تحمي أطراف القرية ومداخلها ليلاً عندما قامت ثورة يناير فتحولت أنظار الناس إلى الإخوان، وذاب فيهم هؤلاء الشباب وتوقفت اجتماعاتهم، ومن ثم وصل إلى مسامعي أن التفكك نابع من أن الإخوان ادعوا أن أحد شباب تلك المجموعة كان يعمل لحساب جهاز أمن الدولة، فتعجبت من هذا الاتهام، ذلك أنهم أطلقوا الاتهام تجاه أنشط شباب المجموعة، بالإضافة إلى كوننا نقوم بعمل خدمي محض، فلسنا حزباً سياسياً ولا جماعة دينية، بل ووصل إلى مسامعي أيضا أنه كان هناك شباب من الإخوان أعضاء في تلك المجموعة وكانوا يطلعون الإخوان على كل تحركاتنا، ولما ذهبت لأحد كبرائهم وطلبت منه الدليل على صدق قوله أخبرني أنهم تحصّلوا على ملف كامل من داخل جهاز مباحث أمن الدولة يحوي أسماء العملاء للأمن، وأن اسم هذا الشاب ضمن تلك الأسماء. أصابتني الدهشة حينها. فنحن لسنا حزباً أو جماعة دينية كي يزرع داخلنا عميل لأمن الدولة، وأدركت أنني أقف أمام دولة أخرى وليست جماعة إسلامية، دولة لها جهاز أمني وجهاز مخابرات وتقيم حساب أي تطورات.

بعد الثورة مباشرة تعالت في الآفاق دعوات تصفية الحساب وانتشرت القوائم السوداء وأخذت التيارات مجتمعة ومعهم الإخوان يكيلون الاتهامات لهذا وذاك بأنه عميل للأمن.

تذكرت هذا الشاب الإخواني الذي جاء يبكي من ظلم جهاز أمن الدولة لأخيه، وأنهم يجبرونه على الحضور بصفة دورية لمقر الجهاز لإطلاعهم على أسرار إخوانه، وتذكرت على الجانب الآخر عمر عبد الرحمن الذي ترك المظهر الديني بعد ما لاقاه من تعذيب، وسألت

نفسي: ماذا بخصوص هذا الملف الذي يلوح به إخوان القرية في وجه الآخر؟ وعدت بذاكرتي للوراء وتلمست تركيبتي النفسية عندما كنت ضمن أفراد تلك الجماعة، وجدت نفسي حينها أصنف الناس صنفين، إما عميل لأمن الدولة، أو علماني يدحض الدين ويرفضه، تلك تصنيفات الإخوان للآخر في قريتي، ذلك أني كنت أعتقد في قرارة نفسي أنني أحارب من أجل نصرة دين الله أو ما أفهمني الإخوان أنه كذلك، وطالما أننا في دولة مسلمة فلن يقف ضدي سوى هؤلاء.

* * *

في أوقات عدة كنا نطلق تلك الكلمة هكذا جزافاً، حتى وإن لم نكن نطلقها جزافاً، حتى وإن كان هذا الرجل أو ذاك عميلاً لأمن الدولة، هل نسي هذا الشاب الإخواني ما حدث لأخيه؟ وكيف كان مجبراً على فعلته؟ هل نعاقب الناس على فعل لا يد لهم فيه؟

تذكرت عمر عبد الرحمن وتحوله عن وجهته لما لاقاه من إهانة وتعذيب. تذكرت أحد شيوخ السلفية في قريتي والذي ظل في المعتقل لسنوات ثلاث وتوفيت والدته ولم يحضر جنازتها وعانت أسرته من الجوع والفقر لغياب عائلها، وبعد سنوات ثلاث خرج من المعتقل فأشاع الإخوان في القرية أنه عميل لأمن الدولة، فلما سألت أحد مسئولي الإخوان في قريتي، قال لي إن أمن الدولة لا يبرئ معتقلاً إلا إذا وقع على ورقة تفيد بأنه وافق على التعامل معهم، وبالتالي هو من المؤكد عميل للأمن. قياس غريب من الإخوان لفترة مظلمة من تاريخ مصر لم يكن أحدنا يأمن فيها على نفسه، غير أن هذا القياس

بات يستخدم لقتل معارضيك، حتى قال لي أحدهم: إن المناضل حمدين صباحي، أحد مرشحي الرئاسة والذي نافس بقوة، كان عميلاً للمخابرات العسكرية، ذلك فقط لأنه لم يعلن دعمه لمرشح معين في انتخابات الإعادة!، وإذا سألت أحدهم قال لك علمت ذلك من الإخوة، والإخوة بدورهم عرفوا من إخوة آخرين، وكأن كلام الإخوة قرآن منزل. تذكرت الاتهامات الموجهة لحركة 6 أبريل عندما كانت تقف في مواجهة الإخوان، عندما أثار الإخوان ضدهم في الإعلام أنهم ممولون من الخارج، وأنهم تنظيم خطر على الأمن القومي، حتى إذا جاءت انتخابات الرئاسة وأعلنت الحركة تأييد الدكتور مرسي مرشحاً للرئاسة، خرج علينا من سبّ الحركة بالأمس ليعتذر لها اليوم وينفي عنها اتهامها بالخيانة.

اتهام من يخالف الأفكار بالعمالة للأمن عقيدة لدى الإخواني، فهو لن يترك لعقله فرصة التصديق أن هناك مجاهداً آخر غيره على تلك البسيطة، فالجهاد فقط حكر عليهم، لذلك فالمخالف يجب أن يحصل على التقدير المناسب حتى لا تتزعزع الثقة في الجماعة، وأقل تقدير يحصل عليه المخالف هو أنه عميل للأمن، غير أن تلك الطريقة يجب أن تنتهي الآن، ذلك أن أمن الدولة صار جهازاً تابعاً للإخوان، فما الحال الآن في المخالف؟ هل ستبحث الجماعة عن تهمة أخرى؟!

الخروج الأول

كانت جماعة الإخوان فكراً أحيا فيه، وليست تنظيماً أنتسب إليه، كانت ديناً تربيت عليه، كانت القضية، والهدف، والغاية، والوسيلة، كانت الحياة، ولا يوجد ترجمة لرحيلي خارج الدائرة سوى الفناء، ذلك أني أهدم البناء وأجعله والأرض سواء. غير أن الرحيل كان قد تشكلت معالمه في دائرتي السرية، فأنا بيني وبين نفسي إنسان، وبيني وبينهم إنسان آخر، وحادث المدرسة الثانوية وخذلاني لأصدقاء الدرب في تظاهراتهم المؤيدة لانتفاضة غزة والتي كنت أنا الداعي لها جعلتني أطلب من نفسي وقفة، حتى هنا وكفي. أردت الرحيل، غير أني فقدت الكيفية، فتركي لدائرة الطاعة يحوي بالمخالفة مفهوم المعصية. حتى اللحظة لا يستوعب عقلي أنه من الممكن أن تكون هناك عوالم غيرهم لا تخرج الإنسان من ديانته وحظيرة إيمانه، إلا أنني فضلت أن أكون شاباً عاصياً سره وعلانيته سواء، على أن أكون مسلماً ذا وجوه متعددة!

ظل الأمر على حاله حتى أنهيت دراستي الثانوية، وكان من المفترض أن أعد نفسي للالتحاق بالجامعة. ذهبت لأبي فرحاً، أحمل في يدي أوراق التحاقي بالجامعة، أغزل ببسمتي هذا العالم الذي أتمنى

أن أحياه، منتظراً تلك الفرحة التي ينتظرها كل أب، وتحيا لأجلها كل الأسر، في الطريق من المدرسة إلى البيت أخذتني خيالاتي لهذا العالم الذي صنعته بنفسي لنفسي، الجامعة، السلم الذي يأخذك لما تتمنى، العلم، المعرفة، الأكاديمية، إلا أن تلك الخيالات والأمنيات توقفت فجأة، وتحولت بسمتي لغضبة كادت تقتلني.

ـ لن تلتحق بالجامعة!!

هكذا قالها الأب، وبقبضة للروح أوشكت أن تقتلني هكذا تلقيتها، وأمي تقف مكتوفة اليد يكاد القلب أن ينفطر من ألمها على رضيعها الذي كبر الآن، وهاهو يطرق باباً قد يصعد به من هذا العالم المقفر الذي تحياه الأسرة إلى عالم آخر من المفترض أنه أرحم وطرقه للصعود متعددة، ولكن زوجها يرى أن هذا العالم ليس لمثلنا، فالفقراء كما يخبرنا خطباء المساجد يدخلون جنة الآخرة وفقط، وليس من المفترض أن يحلموا بجنة غيرها. حاولت أن أستفسر أكثر فقال الأب إن هذا الأمر ليس لنا، حتى وإن طاوعتك فيما تريد فمن أين لنا بالمال؟ واسترسل الأب واصفاً هذا الحال الذي نحياه والذي لا يوفر لنا سوى قوت اليوم وما تبقى يعيننا على ما يخبّئه لنا الغد. زادت دهشتي، وكاد الانفعال المكتوم داخل هذا الصدر أن ينفجر آخذاً روحي معه. كم من الأسر تتمنى هذا الأمر، حتى إذا جاء بذلت الغالي والنفيس من أجل أبنائها، وإذا بأبي يخبرني أنه يجب عليّ الاكتفاء بما وصلت إليه من التعليم، وأن ألتحق بسوق العمل كباقي إخوتي لأهيئ نفسي لهذا العالم الذي لا يرحم أمثالنا، غير أني لم أدرك تلك الحقيقة التي رآها أبي إلا بعد وفاته بعامين.

قلت لأبي إن كان الأمر متعلقاً بالمال فلن أطالبك بمال، سأعين نفسي على دراستي، ومن الغد سأخرج باحثاً عن عمل يوفر لي ما أحتاج إليه من مصروفات وأموال تعينني على دراستي. رضخ أبي على غير رغبة بعد ضغوط مني ومن أمي، لم يكن الأمر متعلقاً بالمال أكثر من كونها حياة يراها ليست لمثلنا.

غير أن الأمر إن بدا في ظاهرة مؤلماً ويستوجب التعاطف إلا أن أبي قدم لي خدمة أدركتها أيضاً بعد وفاته بأعوام، خروجي لسوق العمل أعطاني هذا العالم الآخر الذي أخفاه عنا الإخوان داخل دوائرهم، أو بمعنى أخص داخل القرية، فالقرى تتّسم بالتشدد والتمسك بالأعراف والعادات والتقاليد والموروثات عن غيرها، فما بالكم إن تحكمت في القرية إلى جانب هذا التشدد أحد التيارات الإسلامية؟ مكنني هذا العالم من بدء ترحالي، وكانت رحلة الخروج الأولى. خروجي للعمل إلى جانب دراستي في الجامعة أعطياني القرية الأخرى التي سأبدأ منها، وإن لم يكن خروجي بالكلية إلا أن رمزية الخروج والتي تمثلت في الجامعة والعمل أعانتني على هذا الأمر.

التحقت بوظيفة عامل نظافة في مطعم «فرايديز» أحد فروع شركة أمريكانا وساعدني أخي في الحصول على تلك الوظيفه باعتبار أنه كان يعمل في نفس المطعم، كنت حينها في السابعة عشر من عمري وفي أول يوم ذهبت فيه لمحل العمل الجديد أدركت الفاجعة، هذا المطعم مكون من ثلاثة طوابق، طابق لتقديم الوجبات السريعة، وطابق لتقديم وجبات الأسماك، ويتوسطهم طابق ثالث هو صالة رقص وتقديم المشروبات الكحولية، يطلق عليه في هذا الوسط اسم (ديسكو). ذلك

قبل أن تمنع شركة أمريكانا تقديم الخمور في فروعها المختلفة بعد ذلك ببضعة أعوام لم يطل بي التفكير، فالعثور على وظيفة في تلك الآونة كان من الصعب بمكان، بالإضافة لكون العمل ليس في حاجة لحرفة أو قدرات خاصة، مع العلم أن الأمر صار إما الرضا بتلك الوظيفة أو القضاء نهائياً على حياة الجامعة، فكان أن قبلت الوظيفة.

من الوهلة الأولى في حياتي العملية بين جدران المدينة أدركت حجم الفارق بين القرية والمدينة. وازداد فهمي لتأثير الإخوان في قريتي؛ الأمر لا يرتبط فقط بكونها جماعة دينية إنما هي جماعة دينية داخل قرية الفقر هو السمت الغالب لقاطنيها، ومع الوضع في الاعتبار تدهور نسبة التعليم وتفشي الأمية والجهل فقد حُسم الأمر. قد يجد أصدقائي الآن المبرر لما سطرت قبلاً، أبدوا جميعاً دهشتهم واتهموني بالتجني على الجماعة فور أن بدأوا في تصفح وريقاتي تلك. هم يتعاملون مع شباب من الإخوان ويرون في بعضهم عكس ما أسطر، غير أن جميع من سألتهم من الأصدقاء إن كانوا قد تعاملوا مع إخوان القرى أم لا قد أجابوا بالنفي!

قد ترى إخوان المدن الآن ولا تفرقهم عن الشباب الليبرالي واليساري من تدفق ثقافتهم أو اللغة الخطابية السمحة التي يتكلمونها، وقد يغرّك هؤلاء في الظن الحسن بالجماعة، غير أنك يجب أن تعلم أمرين. الأول: أن هؤلاء غالباً ما يتركون الجماعة، والثاني: أن إخوان القرى والأماكن النائية والعشوائيات هم الغالبية بحكم ترابط الفقر بالقرب من الله، والبحث عن الراحة من قهر العيش في جنة الآخرة، وتلك الأعداد هي التي تحرك الدفة في الانتخابات ووقت الحشد

وتعطي السيطرة لهؤلاء باسم الدين، ومن القرى أيضاً يخرج المرشد ونائبه ورئيس الحزب الحاكم سابقاً رئيس جمهورية مصر العربية حالياً. ليس الأمر طعناً في أبناء القرية، إنما هو تأكيد على تمازج عادات وتقاليد القرية وأعرافها التي تكون في أغلبها متشددة مع تعاليم الدين مما يخرج لنا في النهاية فكراً متطرفاً قد يقتل أجيالاً.

طلّقت سمتي الملتزم وقلت أحيا مجرد إنسان، أريد أن أنزع عني كلمة مولانا، لست شيخاً ولا ملاكاً كما تظنون، إنما أنا مجرد إنسان، يأكل ويشرب وينام، يعشق ويكره، ويخطئ ويرتكب الفاحشة!

بدأت الرحلة في العمل بهذا المطعم الشهير المطل على النيل، والملحق به طابق للرقص وتقديم الخمور.

إن نسيت لا أنسى هذا الرجل الذي كان يعمل بالملهى، يقدم الخمور ويعاقرها، تتلمس عيناه الطريق إلى النساء وأجسادهن الممشوقة، وفي أحيان أخرى كنت أراه يسرق بعض زجاجات الخمر لا ليبيعها، إنما ليشربها دون أن يتكلف ثمنها المرتفع. كان رجلاً في منتصف العقد الخامس من عمره، وكان هادئ الطبع يتقن عمله بطريقة متناهية، ويتقن أيضا ارتكاب المعصية، بيد أنه فور أن يسمع الأذان تجده قد توجه من فوره إلى المسجد وكأنه رجل غير الرجل ليقيم الصلاة، وكانت كلماته لا تخلو من ذكر الإله والاستعاذة من الشيطان. أذكر أنني وفي إحدى المرات التي كنت أعمل فيها على إزالة ما خلفته سهرة الأمس بالملهى وجدت زجاجة خمر مخبأة، خمنت أن أحد العمال أراد أن يحظى ببعض اللذة مجاناً. حملتها لبعض الوقت، أنظر إليها كأني أحادثها،

أستأذنها كي تمنحني هذه اللذة. نازعتني نفسي لأن أفض غطاءها وأرتشف منها لأدرك سر تعلق الناس بها. هل حقاً تأخذك إلى عوالم أخرى؟ غير أن ضربات القلب زادت، ورعشات اليد كادت تسقطها، وكأن هناك من ينظر لفعلتي تلك وينذرني عقابه إن أتيت تلك الفعلة، فما كان مني حينها إلا أن أخذت تلك الزجاجة وألقيت بها في النيل واستحال وجهي بسمة بهذا النصر الذي أتيته، وكأنني أقمت حداً من حدود الله. رآني صاحبنا وأنا أهم بإلقاء زجاجة الخمر في النيل فهرول تجاهي مسرعاً محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه لكنه لم يتمكن من ذلك، فنهرني وصب عليّ جام غضبه قائلاً لي: كيف تلقي بالنعمة هكذا وكأنها نجس؟!

حدث أول اختراق لثوابتي مع تواجدي في هذا المكان، بدأت أعتاد على تلك الأمور، وبدأت لا أجد غضاضة في الإتيان بها. كنت في تلك المرحلة أتذبذب بين كوني شيخاً سابقاً وكوني إنساناً آخر، فكما أن الإخوان يمثلون الطاعة كما ذكرت سالفاً فالترك من الضرورة أن تمثله المعصية، ولم تكن هناك من معصية أكثر مما أنا فيه.

كنت قد قدمت أوراقي للجامعة وتم قبولي للدراسة في كلية الحقوق بجامعة عين شمس. علم العاملون بالمطعم والملهى أن هذا العامل الجديد هو طالب في كلية الحقوق، وكان هذا الأمر مثار اندهاش لي ولهم، هم يتعجبون لماذا أعمل؟! وأنا أتعجب لماذا لا أعمل؟! فبدأت المعاملة تأخذ منحى آخر، كان هناك نوع من الندية وليست الفوقية بيني وبين من هم أعلى مني شأناً في المكان، وكانت تلك أول معالم إدراكي أني مقدم على عالم آخر، ودنيا أخرى، وأنني

ارتقيت أول سلم في هذا العالم بالتحاقي بالجامعة. حينها طلب مني أحدهم أن أترك عملي المتدني هذا وأن ألتحق بعمل في الملهى الليلي، وقرر أن يعينني على ذلك. كان الفارق في الراتب قد أطار النوم من عقلي، تقريباً عشرة أضعاف ما أتحصل عليه من عملي الحالي، غير أنه وفي اللحظة الأخيرة توقف الأمر نظراً لأنهم اعترضوا على سني الصغيرة، وأنه لا يتسنى لمن هم في مثل سني الوجود في هذا المكان. قد أتواجد فيه بعد أن ينتهي العمل به لإعادته لهيئته السابقة وتجهيزه لاستقبال ليالي أخرى، أما أن أُوجد فيه أثناء العمل فهذا مرفوض. غير أن ما أهمني في الأمر هو كوني كسرت الحاجز وانتويت العمل في ملهى ليلي أقدم فيه الخمور!

انتقلت من عمل لآخر، وفي كل انتقالة كانت تصاحبني انتقالة لعوالم المعصية. كنت أحسبها تدفعني بعيداً عنهم، وتدفع الناس عن الاعتقاد بإخوانيتي، كنت أتعمد ارتكاب كل ما يعد في عرفهم معصية، ليس رغبة فيها بقدر ما هو إرادة الترك بمفهوم المخالفة. كان الظاهر للعيان أني أترك جماعة، إلا أني في الحقيقة كنت أترك دينا اسمه دين الإخوان.

وكان العمل الآخر الذي انتقلت إليه لا يقل سوءاً عن سابقه، وتذكرت تلك العبارة التي سطرها «باولو كويلهو» على لسان بطل روايته «الخيميائي»، حينما قال فيما معناه إن الإنسان إن أراد تحقيق أسطورته الذاتية فإن كل ما في الكون يتحالف من أجل إعانته على تحقيق ذلك.

التحقت بالعمل في ذلك المركز الشهير بحي الزمالك، مركز «محمد

الصغير للتجميل»، وكان ذلك العمل عن طريق أحد الأصدقاء العاملين بالمركز، ولا أعلم لسوء حظي أم لحسنه تم اختياري للعمل بالقسم الحريمي، صرت لا أرى إلا النساء، وليس أية نساء، إنهن السافرات الرقيقات الجميلات، أو كما قال الراوي: كاسيات عاريات مائلات مميلات! وكأني أحطم ناموساً حملته جدران عالمي هو أنني مولاكم فلان، وبدأت أرقّ لهذا العالم، وأدرك أنهم أناس مثلنا، إنهم بشر، ولهم أخلاقهم وقيمهم ومُثلهم، وليسوا كما يصور لنا داخل دوائر دين الإخوان، من أن هؤلاء البغاة هم سبب النكبة التي يحياها المسلمون. أذكر ممن قابلتهم في هذا المركز المطربة شيرين عبد الوهاب، كنت أحمل المكنسة وأنظف المكان الذي سيستضيف الفنانة، فما كان منها حينها إلا أن عاملتني بشيء من المرح وأخذت مني المكنسة وبدأت تفعل مثلما أفعل وتبادلني الضحكات، كانت تقاربني في السن حينها على أغلب الأحوال، ورغم تلك الشهرة إلا أنها لم تتورع عن فعل ذلك. ولمسني هذا الموقف الإنساني، وبدأت أنبش في العقل وأعدل مفاهيمي، ليس كل ما عدا الإخوان ضالين، وليس كل ما عدا المسلمين كفاراً، إنما هناك إنسان يحمل قيمة الإنسان، وهناك حيوان، لا عقل ولا إنسانية داخله.

بدأت الدراسة بالجامعة، ومن أول يوم لي داخل المدرج الجامعي، قررت ألا أصادق ذكـوراً، كن جميعهن فتيات. وكسرت الحاجز النفسي، وصرت أطلق ألفاظ الهوى هكذا دون حساب، أعشق هذه، وأتيم بتلك، وإن تركتني الحبيبة ما ألبث أن أستبدل غيرها بها، حتى أنني قلت كلمة الحب لعشرين فتاة في أول فصل دراسي بكلية

الحقوق. كانت ممنوعات لسنوات، غير أنها فجأة أضحت مباحات، مباحات وأعدادهن بالآلاف، وكلهن فاتنات، وبعضهن سافرات، ولهن نفس الرغبة، بعد منع دام عليهن أيضاً لسنوات، نعم كانت هناك خطوط حمراء فرضتها ليالي المشيخة سابقاً، غير أني اكتفيت بما أسفل تلك الخطوط في ذلك الوقت أردت أن أعالج سوءة ألمت بي، غير أن الدواء الذي استحضرته كان أسوأ، وبدلا من أن أعالج القصور فيما مضى شطحت بأمري فيما حل، وصرت أتعامل مع المرأة أسوأ مما كان. كيف لي أن أعدها إنساناً يشاركني الأمر، وأنا لسنوات أنام وأصحو على حديث للرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول فيه: «لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»، وأحاديث أخرى تتحدث عن غض البصر وأن النساء حبائل الشيطان، وأن العين تزني والقدم تزني واللسان يزني، وأن تلك المرأة ما هي إلا وعاء للجنس وفقط. قد أكون قد أخطأت السبيل، غير أني أعذر نفسي لأن الركب الذي أقلني لم يسطر عنواناً على مقدمته سوى سبيل حبائل الشيطان!

رحلة خروجي الأولى لم تتسم بالدوام، كانت تتخلل الرحلة مرات رجوع، أغوص في بحر المعصية بمفهوم الإخوان بضعة أشهر، ومن ثم أعود لبحر الطاعة بضعة أشهر، ومع الوضع في الاعتبار الضغط الأمني الذي لم يكن يمكن الإخوان المسلمين من متابعة الناشئين داخل الجماعة، بالإضافه لما تسرب لي لاحقاً من كونهم كانوا ينتظرون رحيلي باعتبار رؤيتهم السابقة بأني لن أكمل الطريق بين ظهرانيهم، ندرك لماذا كنت أعود وأرحل لمرات دون أن يعينني على آلامي أحد؟!

وكانت أشهر تلك الرحلات تلك التي قضيتها مع الداعية الشاب عمرو خالد، ألزمه طائعاً، فإذا تم منعه من قبل الأمن رجعت لسابق عهدي، وإذا عاد أعود، ثم يمنع فأمنع. قد أكون كما قلت سابقاً لم أعد تنظيمياً في الإخوان، غير أنني كنت أتحلل من فكر تشربته لأعوام وأنا في المهد صبياً تتشكل معالمي.

انكسار لله أم انسحاق أمام الشيخ؟

لم أعلم حينها ترجمة لهذا الارتباك، هل هي الفرحة من القادم الجديد؟ أم الخوف من الفشل في تجربتي الأولى؟ كانت ساعات غير أنها وقعت في نفسي وقع الأيام الثقيلة. كان قد تعود أن يلقي بي في الأمر دون تهيئة، كانت لديه ثقة غير مبررة بهذا المتدرب حديثاً، يرى أنني أقدر على الإتيان بما يعجز عنه الآخرون. كنت حتى تلك اللحظة مكتفياً بالأعمال الإدراية، أنهي أمراً هنا، أتقدم خطوات في أمر هناك، غير أني لم أحسب لتلك الخطوة حسبتها، كنت دائما ما أهرب منها، وكنت أخبره أن الأمر لم يئن أوانه بعد.

نادى الحاجب على رقم القضية، مرة، اثنتين، تسمرت الكلمات في حلقي، أردت أن أقف فلم أقدر، أردت أن أرد النداء فلم أقو. أعاد حاجب المحكمة النداء مرة أخرى، شددت على نفسي وارتديت ثوب المحاماة الخاص بي وتوجهت إلى القاضي. نظر لي القاضي قائلاً: طلبات الدفاع؟ غير أن تحجر الكلمات في حلقي لم يزل بعد، كنت وكأني نسيت المعاني والمصطلحات وعدت طفلا لا يملك من أمره شيئاً، حتى تلك اللحظة كنت أجيد دور التابع، تفوقي في الأمور الإدارية كان يعود الفضل فيه لكوني لا أتصدر الأمر، أنا فقط أنفذ

تعليمات المحامي الذي أتدرب على المهنة بمكتبه. نظر لي القاضي نظرة المشفق، أدرك من هيئتي وصغر سني أني متدرب حديثًا في مهنة المحاماة، فأعاد سؤاله بصوت أكثر عطفاً قائلاً: طلباتك إيه يا أستاذ؟ تذكرت حينها تلك الكلمة التي شاهدتها بالأمس في أحد الأفلام لمحام كان يقف نفس موقفي، قلت على الفور وكأني أدركت طوق النجاة: تطبيق نص القانون على الحالة المطروحة أمامنا. كان باب المرافعات قد أغلق في القضية سابقاً ومن المفترض أنها محجوزة للحكم، عندما أرسلني المحامي أخبرني أن الأمر لا يحتاج لعناء، فقط إثبات الحضور بالتوكيل الصادر لك من المتهم وسماع الحكم. أدرت ظهري للمحكمة وتركت نفسي لقدمي تأخذاني حيث شاءتا، وسألتها: لماذا؟!

* * *

تذكرت هذا اليوم في المدرسة الثانوية عندما أسأت التصرف في حصة الرياضيات، فما كان من أستاذي إلا أن أسرع الخطو تجاهي ليمسك بتلابيبي جاذباً إياي بكل ما ملك من قوة دافعاً بي أرضاً وإذ به يضربني بكلتا يديه دون أي تحسب لأذى، جاهدت نفسي على الوقوف، غير أنه لم يجاهد نفسه ليقف عن ضربي بكلتا يديه على وجهي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يصفعني فيها أحدهم. لم أكن أعلم أن الصفعة لها من هذا الأذى النفسي إلا في تلك اللحظة. ظللت واقفاً أمام الطلبة حتى انتهى الأستاذ من درسه وكانت أطول دقائق مررت بها قبلاً، غير أني لم أقو على رفع رأسي بعزة، أحسست بانسحاق أمام أستاذي، حتى وإن كان أستاذي فالنفس لها أن تغضب،

أن تثور، أن ترفض، حتى وإن ظل الرفض حبيس النفس، غير أنه موجود، وسألت نفسي أيضاً: لماذا؟!

* * *

عادت بي الذاكرة إلى الوراء كثيراً، تذكرت تلك التجمعات التي كنت أنشد فيها تلك الأناشيد بصوت منغم، وكيف أن الحضور كانوا يبدون تجاوباً وإعجاباً بهذا الطفل ذي الصوت الشجي. كنت أشعر في نفسي بهذا الشيء المحرم، تلك الفرحة التي تقود إلى النار، العجب بالنفس، والعجب كبر، والكبر شرك، وكل الذنوب تغتفر إلا الشرك بالله. كانت معركة أخرى دارت رحاها في ليالي الترك.

كنا دائماً نبدأ حديثنا داخل دوائر الإخوان بحديث شريف يعلي من قيمة النية ووجوب أن تكون لله، وكانوا دائمي التأكيد على هذا الأمر، وأحاديث طوال عن أن النية لو شابها عوار تحول الأمر لشرك أصغر وربما تطور لشرك أكبر، وهنا فأنت معرض لجهنم وبئس المصير، غير أني لم أكن أجد ما يمنع من التربيت على كتف أحدهم إن هو أحسن. نحن في حاجة لمثل هذه الأمور كي نملك القدرة على الاستمرار، لكن من يملك القدرة على الهروب من العجب بالنفس الذي قد يجعل من نفس أحدنا صنماً يُعبد من دون الله.

كنت اسأل نفسي دائماً كيف أحب إلهاً وأنا دائماً ذليل له منكسر الرأس أمامه؟ وهل الحب ذل أم ندية بين المتحابين؟ وهناك السؤال الأهم، من ذا الذي حدد معايير الذل والانكسار؟ وهناك النتيجة الأخطر، هل تحول الانكسار لله إلى انسحاق للشيخ ممثل الإله؟

جميعنا نذكر قصة عضو مجلس الشعب السلفي الذي أجرى عملية تجميل بأنفه وكذب على الجميع وقال إن أحدهم هاجمه وإنه أصيب في أنفه خشية أن يظهر بمظهر الكاذب الذي يحرم عمليات التجميل ثم يأتيها من خلف أتباعه، والآخر الذي أتى فعلاً فاضحاً،عندما أوقفته الشرطة وهو يصحب فتاة في سيارته الخاصة وهما في وضع خادش للحياء، ورأينا كيف لم يكن متقبلاً لدى العامة أن يخطئ الشيخ، وأكدوا لنا أنها مكائد من كارهي الدين، علماً بأنها حقائق واضحة، بل وصدرت فيها أحكام قضائية، غير أن العبد الذليل لا يحق له أن يرفع رأسه أمام من نكست لأجله من قبل.

كنت كلما أتيت أمراً أعجبني نهرت نفسي عن غيها، إن الأمر كله لله، ولا يحق لي أن أعجب بأمر لا يد لي فيه، فالإرادة لله، وما أنا إلا أداة في سبيل تحقيقها، وهنا نرجع لمصطلحات مثل آلي وأداة، غير أننا لم نر الله ولم نلمسه، لكننا رأينا التيارات الإسلامية ولمسناها، ولأنهم خلفاء الله فليتحول الانكسار لله إلى انسحاق للشيخ. لا تتعجب من هذا الإخواني الذي يراك على خطأ طيلة حواره معك، ذلك أنه ليس هو من يرى، إنما الشيخ هو الذي يرى، والشيخ له شيخ أعلى وهكذا، وطالما أنه مزج بين الانكسار والانسحاق مغلف بغلاف العبادة فأنت هنا لست مخالفاً للرأي، إنما أنت تخالفه العقيدة والدين. قد يقول إنه يحترم رأيك، قد يدعي أنك شريك له في الوطن، لكن المؤكد أنه لن يقدر على أن يكسر طوق انسحاقه ويكسر مفاهيم الخلافة كما وصلت عن حسن البنا، إن هادنك فهو يهادن حتى يصل لما هو مستخدم من أجله وفقط.

بدأت رحلة المعاناة فور أن انسحبت بهدوء من دائرة الإخوان دون

أن يبكي على فراقي أحدهم، وكأنهم كانوا ينتظرون!؛ فأنا أرى أي فعل آتيه هو لله وبالله، وأنني لا دخل لي فيه، وأنني إن أُعجبت بما أتيت فقد ارتكبت شركاً يقودني إلى النار. كنت داخل الجماعة أرى العالم من عين الشيخ، وكنت أرتكن إلى تلك الرؤية ولا أكلف نفسي عناء البحث، بل وأجاهد من أجل الدفاع عن رؤية الشيخ وأحارب كل من هاجمها وألقي عليه عبارات التكفير بكل سهولة. أما الآن فقد نفضت عن كاهلي تلك الدائرة، وأزحت عن عيني غباراً داومها سنوات اسمه «عين الشيخ»، حينها شعرت بشعور من فتح مقلتيه فجأة على وهج الشمس فلم يصمد وأسرع بإغلاقهما، وأخذ يفتح عينيه بحذر، محاولاً تلمس هذا النور الذي دب فجأة. عندما ترى بعين الشيخ فأنت لا تكلف نفسك مشقة البحث. في انتخابات الرئاسة 2012 سألت أحد أصدقائي الملتزمين غير أنه لا ينتسب للإخوان: من ستختار رئيساً؟ فرد قائلا: انظر من يلتف حول كل مرشح وأنت تدرك من سأختار، فاستوضحت منه فرد قائلاً: الشيوخ والعلماء يلتفون حول الدكتور مرسي، وأنا سأتبع من تبعه الشيوخ والعلماء. قارنت بين هذا الموقف وموقف الأزهر الذي ظل على الحياد، وسألت نفسي: هل هؤلاء شيوخ وهؤلاء شيوخ من كوكب آخر؟. قلت: وهل تعرف الدكتور مرسي معرفة جيدة؟ قال: لا، لكن أثق في تلك الزمرة من العلماء التي التفت حوله. هنا انسحقت رؤيته أمام رؤية الشيخ حتى ولو لم يكن عضواً في الجماعة.

بات الأمر من الصعوبة بمكان حينها، تمازج الخيوط بين الإله والشيخ جعل الأمر أكثر تعقيداً، بالضبط مثل تمازج مفهوم الدين ومفهوم الجماعة سابقاً، قد يقول قائل: إن العيب كل العيب في

التطبيق، وإن الشيوخ أخطأوا المسار، وإنه ما من نقيصة في الدين، غير أن هذا القائل تغافل أو تناسى أن هؤلاء الشيوخ الذين أساءوا التطبيق هم أنفسهم من يسطرون لنا الكتب والمجلدات والأوراق التي نرى الدين من خلالها، هنا تتحول الرؤية الخاطئة والنقص في التطبيق إلى دين. حينها إن أردت التحلل من تلك الخطيئة فعليك أن تتحلل من الدين بهذا المفهوم وتتفكك، ومن ثم تعيد بناء الأمر من جديد بعد أن تكون قد ملكت تلك الصورة المجردة التي تمكنك من الحكم على الأمور دون تحيز أو دون أن تكون قد رأيتها بعين أحدهم وليس عينيك أنت، وقد كان.

في العام 2001 تقريباً حضرت محاضرة للداعية عمرو خالد كانت بعنوان: «الانكسار لله»، تلك العبادة التي غفل عنها الناس، وكيف أن العبد كلما كان منكسراً ذليلاً إلى الله كان أقرب منزلة، والانكسار لله يقضي على أحاسيس الشرك بالله في داخلك، فإعجابك بنفسك أو أمر أتيته قد يتحول إلى شرك. كان هذا المفهوم يغذي لدينا داخل دائرة الإخوان، لا نبدأ جلساتنا إلا بحديث شريف يؤكد النية وعلى أهمية أن تكون لله، يطلب منا أن نصمت لدقائق نجدد فيها نيّاتنا، وإن حدث هرج ومرج أثناء اللقاء أو تشعبت خيوط الحوار، وظهر في الأفق أن هناك حواراً سينشأ وأسئلة ستطرح يعاد تجديد النيات مرة أخرى.

كنت كثيراً ما أتقدم لمسابقات الإخوان الرمضانية أو التي يقيمونها في مناسبات مختلفة فأبذل الجهد في الإعداد لتلك المسابقة، والتي تكون في الغالب عبارة عن ورقة تسطر عليها بعض الأسئلة في أمور الدين، في حين أن آخرين قد يحصلون على إجابات تلك الأسئلة من

ذويهم، وفي اللحظة التي أنتظر فيها المقابل أجد أن شخصاً آخر قد حصد تلك الجائزة وأن مجهودي ذهب هدراً. هم لا يقيمون الأمر بالكفاءة، بل بالطاعة ومدى الالتزام لأوامرهم. المدهش أنني حينها لم أكن أغضب منهم، بل كنت أغضب من نفسي الأمارة بالسوء تلك التي هوت الحصول على الجائزة الدنيوية وتناست الجائزة الأخروية، تناست الجنة ورضا الله، وكنت أرى في نفسي رياءً ونفاقاً، أنا أفتقد للإخلاص الكامل لله أو حتى الجزئي، ذلك أني أسعى للحصول على تقدير لنفسي دون الجماعة، يجب أن يأتي التقدير للجماعة، للإخوان، أما نحن فجنود في جيش الله.

زاد الأمر في نفسي ومعه زاد جلد الذات، وزادت رغبتي في كسر تلك النفس الأمارة بالسوء والتي لا ترى سوى الدنيا، لكن أعود وأسأل نفسي: هل هو انكسار لله أم انسحاق للشيخ؟!، إن كان لله فلم أقف أمامهم صامتاً؟ لَمَ أشعر بالنفاق وأنا أطالب بكلمة ثناء من أحدهم على مجهود أتيته؟ أو لم أطالب بتجديد النية إن أنا حاورتهم أو ناقشتهم أو استفسرت عن أمر ما؟ غير أن الأمر يفسر نفسه، فكما حدث المزج بين مفهوم الدين والجماعة حدث المزج بين عبادة الانكسار لله وعبادة الانكسار أمام الشيخ، وبمرور الوقت وكلما زاد إيمانك تحول انكسارك إلى انسحاق، وإن أنت خالفت الأمر صرت منافقاً، معجباً بنفسك، تلك السوءة التي قد تلقي بك في نار جهنم، تلك النار التي هي مصير كل من خالف الحق، أو بمعنى أصحّ الشيخ.

* * *

فور أن خرجت من المحكمة أخذت أفكر في حالي، من الطبيعي أنني لم ألتحق بكلية الحقوق وأقضي تلك السنوات الدراسية كي أكتشف في النهاية أنني لا أملك القدرة على أن أكون نفسي، وأشعر أنني أقل من الآخر لا لشيء إلا أنني كنت دائماً تابعاً لنظرة أحدهم ورؤيته، والمحاماة تحتاج لنظرتي أنا والخطأ البسيط مني قد يدمر حياة أحدهم، وبدلاً من أن أهاجم قررت ترك المعركة، وتركت مهنة المحاماة.

* * *

على الرغم من أنه قد مر على تركي لدائرة الإخوان ثلاث سنوات، فإنني لا زلت أحيا فيهم، ولا زلت أنتظر رؤية الشيخ. نحن الآن في العام 2008، أتممت الآن الرابعة والعشرين من عمري، غير أني لا أملك القدرة على تحديد مساري. أيام الإخوان كنت أقدر على تحديد هذا المسار، ذلك أنني لم أكن من يحدد، إنما هم. كان هذا من أهم ما يميزهم، يسمى الأمر داخل دوائرهم تكليفات، هناك من يفكر ويخطط وأنت فقط تنفذ، ليس عليك أن تعمل عقلك، فهناك من يكفيك هذا الإعمال، أما الآن فالأمر مختلف.

حاولت أن أقاوم هذا الانسحاق غير أنه دائماً ما كان يضربني بقوته فأنكفئ على نفسي غير مأسوف عليّ، حتى إنني كنت في الجامعة ذات يوم من عام 2005 وكنت قد تركت الجماعة وحدث أن لاح في الأفق تكبير لا أعرف مصدره. التكبير يعني أن هناك أمراً بالحضور حالا، وكأنها كلمة السرّ المتفق عليها والتي تعني النفير لأن هناك في

الأفق أمراً جللاً، فجأة هرول الجميع، أو بمعنى أدق جميع الإخوان، وجدت نفسي أهرول أنا أيضاً تجاه النداء، احتشدنا ونظمنا الصفوف وعلا التكبير في أروقة الجامعة. توجهت مع الحشود لقصر الزعفران مقر رئاسة جامعة عين شمس، قمنا بمحاصرته، امتنع على رئيس الجامعة والوكلاء وحتى رئيس الحرس أن يخرجوا من القصر، لقد قمنا بحبسهم، ظللت ثلاث ساعات وأنا أقف كترس في آلة داخل التظاهرة الإخوانية لا أقوى على شق صفهم والذهاب، وكأنني قد أخون جيش مصر في معركته مع الغزاة. كنت قد تركت الإخوان ولم أعد أجالسهم في دوائرهم قبل هذا التاريخ بعامين، وكنت قد بدأت أتحلل نوعاً ما من تعاليمهم وأفكارهم طيلة العامين أو هكذا ظننت، غير أني فور أن سمعت «الله أكبر ولله الحمد» وجدت وكأن جنيّاً قد تلبسني وجعلني أهرول لمصدر التكبير، وكأنه أمر إلهي وتلبيته فرض واجب. من المضحك أنني كنت ساعتها أقف مع إحدى حبيباتي والتي مررت عليهن في الجامعة، كنا نتبادل العشق وكلمات الهوى، غير أني وفور سماع التكبير تحولت لإنسان آخر وتركتها فجأة، فتحولت بسبب تكبيرة من عاشق إلى إخواني.

بعد تركي المحاماة مررت بحالة اكتئاب لازمتنى عاماً كاملاً، كنت تقريباً لا أخرج من البيت أو القرية إلا نادراً جداً، أجلس في غرفتي بالساعات أقرأ، ألتهم كتاباً بعد كتاب، إلا أنها كانت فقط روايات، حتى اللحظة كنت أنظر من عين الشيخ التي ترى أنه ليس كل علم ينفع، وكانت هناك أسماء وعلوم بعينها من المحرم علينا الاقتراب منها، إنها مثل النداهة التي إن سلبت عقل أحدهم أحالته إلى دائرة الكفر.

حتى في القراءة كنت أنسحق أيضاً أمام الكتب التي يراها الشيخ وفقط، فكنت وكأني أطلب الشفاء من عليل، ذلك أني أبحث عن مخرج من هذا الانسحاق بقراءة كتب هؤلاء الذين أشاعوه في نفوسنا من قبل.

عملت بائعاً متجولاً بعد تركي المحاماة، كانت مهنة امتهنتها أثناء الجامعة لإعانتي على مصاريفها، وبعد عجزي أن أصير محامياً عدت إليها. لم تكن تحتاج لمواجهة، أنت تعرض منتجاً والعميل له أن يقبل بالشراء أو أن يرفض، وكانت تتميز بأنها ليست في حاجة لأن أعتلي أسوار القرية، أي أنني خرجت من غرفتي في المنزل لغرفة أوسع نوعاً ما. في العام 2009 توجهت لصيدلية على أطراف قريتي لأعرض منتجي هناك. وجدت شاباً ملتحياً وقد انكفأ على كتاب وكأنه يلتهم قطعاً من اللحم. تعجبت في بادئ الأمر، ذلك عندما أدركت أن الكتاب في يديه ليس من كتب الشيوخ، كان يقرأ في رواية، لعله يحاول أن يخرج من سطوتهم هو الآخر، بعد حوار خفيف دار بيني وبين الصيدلي طلبت منه الكتاب كي أقرأه، تعجب من هذا البائع المتجول رث الهيئة الذي يطلب كتاباً، أعطاني إياه دون اهتمام وكأنه يرى أنه ليس إلا مجرد تطفل من عابر سبيل.

عدت له بعد يومين بالكتاب وناقشته فيه، هنا اهتم بمحدثه وبدأت بيننا صداقة دامت إلى اليوم، وله يعود الفضل في كسر أول أسوار انسحاقي، هو الدكتور الصيدلي وصديقي حامد محمد، لم يكن إخوانياً، ولم يكن سلفياً، ولم يكن صوفياً، كان إسلامياً وفقط، غير أنه يسمع الموسيقى ويقرأ الروايات، ويشاهد الأفلام، ويقدس العشق. تفتحت معه آفاقي في القراءة، فصار لديّ رافدان، شيخ المسجد على

أطراف قريتي الأستاذ في جامعة القاهرة فرع الفيوم محمد مصطفى منصور والذي علمني ثقافة البحث والسؤال، والدكتور حامد محمد الذي ساعدني على كسر أسوار انسحاقي، وزاد على ذلك أنه ساعدني على القفز من فوق أسوار قريتي، والتي كانت دائماً ما تذكرني بدوائر الإخوان إلى آفاق أخرى خارج القرية. كنت قد حاولت القفز أعلى تلك الأسوار في حالات سابقة، إلا أنها كانت عشوائية ولم تكن تؤتي ثمارها، أما مع الدكتور حامد فكان الأمر أكثر تشويقاً.

اتصل بي في تلك الليلة وطلب مني الحضور إلى الصيدلية لأمر عاجل وقد كان. أخبرني حينها أن وزارة الثقافة تقيم دورة تدريبية تحت عنوان: «تنمية مهارات البحث في مصادر المعرفة»، وأن تلك الدورة من القيمة بمكان نظراً لأنها مدعومة من وزارة الثقافة ودار الكتب والوثائق القومية، وأيضاً لأنه يحاضر فيها العديد من النخب الفكرية والسياسية وأساتذة الجامعات في مصر حينها، غير أني لم أقو على الموافقة، كنت أرى في نفسي أنها أقل من خوض هذا الأمر، وزاد انتقاصي لنفسي عندما أخبرني أن هناك ثمة مقابلة أشبه بالامتحان والذي من المفترض اجتيازه أولاً قبل الانضمام لتلك الدورة. صدرت عني حينها ضحكة ساخرة وقلت له: لا طائل من وراء مجهودك، لكن الدكتور حامد أصر على خوضي غمار التجربة، وأكد أنني أقدر على نيل أحقية تلك الدورة التدريبية، فجاريته في الأمر حتى لا يغضب وقلت لنفسي سينسى الأمر فور أن أذهب. طلب مني كتابة تعريف لنفسي وإنجازاتي مثل الاسم والعنوان والمؤهلات والدورات التي حصلت عليها، فزادت تلك الضحكة الساخرة وأغضبت الدكتور حامد، ذلك أنه ليس هناك

ما يكتب، بعد معاناة كتبت بضعة أسطر لم تجاوز حتى نصف الورقة وأعطيتها إياه، وقام هو بإرسال البيانات إلى الوزارة وتقدم إلى الدورة عن طريق إيميل أنشأه هو باعتباره أنا.

بعد مرور بضعة أيام رن هاتف المنزل وكان الاتصال من وزارة الثقافة فتسمرت قدماي وجف الدم في جسدي، ظننت في بادئ الأمر أن الدكتور حامد قد دبّر لي مقلباً وكدت أغلق الهاتف في وجه محدثي غير أن شيئاً منعني. تم تحديد موعد لاجتياز الاختبار، ذهبت في الموعد المحدد فزاد انتقاصي لنفسي مع أول شخص دار بيني وبينه حوار في كافتيريا دار الكتب والوثائق القومية، كان الصديق ورجل الكشافة عماد عبد الرحمن، ذلك أنه أخرج من حافظة أوراقه إحدى عشرة ورقة حوت التعريف به وبإنجازاته والدورات التي خاضها، علماً بأنه كان في مثل عمري، قارنتها بنصف الورقة التي تقدمت بها وقلت لنفسي راسب لا محالة.

توجهت مع عدد من المتقدمين للدورة إلى المكان المخصص للاختبار وعلى عكس المتوقع وجدت أن الأمر ليس ورقة وأسئلة كما تعودنا، إنما هي أسئلة عامة تبرز جوانب الإبداع لدى المتدرب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب مني أحدهم أن أبرز جوانب إبداعي ويسعى لذلك دون أن أشعر أنني منافق ومعجب بنفسي، ودون أن يتطلب مني الأمر تأدية ركعتي توبة على إتياني أحد أفعال النفاق والشرك بالله. انتهى اللقاء وعدت لمنزلي وأنا على يقين أنني خارج تلك الدورة، إلا أن الأمر جاء على عكس ما ظننت ورن الهاتف تلك الرنة التي كانت نقطة تحول في حياتي، ومنذ تلك اللحظة وأنا أسير

بخطوات ثابتة في طريق تفككي من هذا الانسحاق لتلك الدائرة، وكان اختياري ضمن ثلاثين متدرباً من بين العشرات ممن تقدموا للدورة ولا زلت أدين بالفضل لدار الكتب والوثائق القومية ووزارة الثقافة المصرية فيما وصلت إليه الآن. ذلك أنني أدركت أن هذا الذي يدب في جنباتي ليس نفاقاً إنما هو إبداع يجب أن أترك له العنان ليرقى، وأيضاً لأن أول معول ضرب في سور انسحاقي وعزلتي كان معول تلك الدورة التي علمتني كيف أبحث عن المعرفة الحقة.

* * *

بعد ثورة 25 يناير 2011 عندما حدث احتكاك بيني وبين العديد من شباب الإخوان. كانوا حتى تلك اللحظة يعتقدون أنني لا زلت أحمل فكر الجماعة، قال لي غير واحد منهم: إن حسن البنا قال «كم منّا وليس فينا»، معتقداً أن هذا الكلام ينطبق عليّ وأنني وإن لم أكن فيهم الآن فأنا أحمل فكرهم. غير أن ما صدر مني إثر تلك الاحتكاكات والمناقشات جاء على غير المتوقع، فبينما كنت أدعو لرفض استفتاء مارس 2011، هاجمني بعض شبابهم واحتدوا عليّ في النقاش لأنهم يرون أن رفض الاستفتاء قد يكون سبباً في إلغاء المادة الثانية من الدستور، وفي مجلس الشعب اخترت مرشحاً غير مرشحهم، وأثناء انتخابات الرئاسة كنت أنا وصديقي أشرف عمران وآخرون مسئولين عن حملة حمدين صباحي الانتخابية في القرية، فتعجبوا كيف تسنى لي أن أرفض فكرهم ودينهم؟! كيف جرؤت على مواجهة شيوخهم ظل الله على الأرض؟، بل كيف وقفت في مقر حزب الحرية والعدالة بقريتي بعد الإعلان عن الإعادة بين ـ مرشح الإخوان وأحمد شفيق ـ ذلك عندما تمت دعوة

مسئولي الحملات الانتخابية في القرية لتنسيق العمل، وقلت بصوت جهوري وفي حضور كبرائهم: أنتم مخطئون. وما نحن فيه الآن يعود لخطابكم السلبي! فالشيخ لا يخطئ، بل لا يجب أن يخطئ، وإن أخطأ فالتمس لأخيك العذر كما علمنا الرسول لكن لا تعتنف ولا تهجر فكره ومنهجه.

فلما طفح الكيل بأحدهم قال لي بأعلى صوته إنني مريض نفسي قذر، ذلك أنني أهاجم الإله المتمثل فيهم، ولما شكوته للإخوان قالوا لي إنه كان يمازحني! ونهرني آخر وقال لي إنني أنتهج مبدأ «خالف تعرف»، وإنني أحب الظهور، وأسعى للشهرة بنقد الإخوان، وأورد ثالث على مسامعي مقولة محتواها إنه إن لم تجد لك حاقداً فاعلم أنك فاشل، وهناك المقولة الأشهر: موتوا بغيظكم.

في كل ما فات لم يتخيل أحدهم أنني من الممكن أن أخرج عن ربقتهم، ولم يكلفوا أنفسهم عناء مناقشتي؛ فأنا في خيالهم معجب بنفسي منافق أسعى للشهرة، أو مريض نفسي على أقل تقدير، وهنا قد رفع القلم عني ولن أسأل عن شركي بالله. أما ردي عليهم فهو أنهم منسحقون تحت فكرة عفا عليها الزمن منذ ثمانين عاماً، ويجب غربلتها.

باحث وداعية

مع اقتراب العام 2000 أحكم نظام مبارك قبضته على الإخوان المسلمين، وضيق عليهم الأمن دوائرهم، وأغلقت المساجد في وجوههم وتحولنا فجأة وكأننا نغتصب حقوقنا. وقد زادت مظاهر ذلك وتضخم أثره بعد تفجيرات 11 سبتمبر. لم نعد نجتمع في المساجد كما كنا، وأغلقت أبوابها في وجه محفظي القرآن من الجماعة، حتى هذا اللقاء الأسبوعي والذي كان يجمعنا بالشيخ لتدارس أمور الدين أضحى وكأنك ذاهب لارتكاب جريمة، فنحن نذهب فرادى ونصعد لمنزل الشيخ بحذر، وفور أن ينتهي الدرس لا نخرج جماعة، بل فرداً فرداً، وننصرف فوراً ولا نتجمع أمام منزل الشيخ، وكان أعضاء الجماعة في قريتي يقضون في المعتقل أكثر مما يقضون في منازلهم. هذا الضغط الأمني الذي لم يعد يعطينا مساحة للتدارس والاطلاع مع تمردي على بقائي داخل الدائرة بالإضافة لرؤية الجماعة أنني لن أستمر بين ظهرانيهم وأنني لست بذي فائدة دفعني لأن أبحث عن نفسي خارج معسكرهم.

رأيت أخي الذي يكبرني بعامين يدعوني للصلاة، من المعتاد أن يدعوك أحدهم للصلاة، أما أن يكون أخي الذي شيب أبي وأرّق

علينا لياليـنا، ذلك الذي لم تسلم منه فتيات القرية والقرى المجاورة من مغازلة وتتبع، من ورد أبواب الرجال باكراً فشرب سيجارته الأولى وكأس خمره الأولى وهو لايزال ابن الأربعة عشر عاماً، أن يحدث هذا من أخي فإنه لأمر عجاب. بمرور الوقت هدأ طبع أخي وصار السواك لا يفارق فاه، والأذكار لا يخلو منها لسانه، والمصحف دائماً في يده. كلما تذكرت ضحكة أبي الساخرة من كونه لا يصدق عينيه ولا يملك إلا أن يقول (تلاقيه عاوز يصاحب واحدة ملتزمة) كلما تعجبت من هذا الذي حول أخي هكذا في لحظة من النقيض إلى النقيض!، لم يخف السر طويلاً، حضر صديق لأخي كان قد التزم هو الآخر حديثاً، والاثنان لا يزالان في الثامنة عشر من عمريهما وشدا الرحال إلى أحد المساجد بحي العجوزة، مسجد صغير بأحد الشوارع خلف مسرح البالون، هو مسجد الشيخ الحصري. قلت أذهب معهم لعلني أجد بغيتي لدى هذا الشيخ الذي يملك عصاة سحرية تحول العصاة فجأة إلى ملائكة وقد كان.

على الرغم من كون محاضرة الشيخ بعد صلاة العشاء إلا أننا توجهنا إلى المسجد قبل هذا الموعد بساعات. علمت من أخي أن هذا الشيخ رواده كثر، ولكي نتمكن من الجلوس قريباً فعلينا أن نذهب باكراً عن موعد الدرس. هالني الأمر منذ وضعت قدمي داخل المسجد، فالحضور في أغلبهم شباب، أعمار صغيرة، ولا ترى السمت السلفي الذي دائماً ما يغلب على مريدي الندوات الدينية. أخذت موقعي على يسار المنبر وانتظرت. فجأة وجدت شاباً يضع يده على كتفي طالباً أن أفتح له طريقاً للمرور، فعلت وتقدم وإذ بي أراه يتجه صوب القبلة

ويجلس على الكرسي المخصص للداعية، سألت نفسي حينها: أهو هو؟! ما لبث أن تأكد لي الأمر، غير أنه ليس مطلق اللحية كما تعودنا، أضف إلى ذلك أنه لا يرتدي هذا الزي الذي يميز رجال الدين، بل يرتدي ملابس إفرنجية لا تفرقه عن أي شاب يجلس في المسجد، بل والأدهى من ذلك أنه ثلاثيني العمر، إنه الداعية الشاب عمرو خالد.

كنت مأسور الفؤاد بعمرو خالد في تلك الفترة من حياتي، يكفي أن يتحدث حتى ينقلب حالي من حال إلى حال. تبعته في ثلاثة مساجد مختلفة. كان في كل مرة يخبرنا أنه ذاهب لقضاء العمرة، إلا أنه يذهب ولا يعود، ونعلم من ثم أنه قد تم منعه من قبل أمن الدولة، ومن ثم يعود ولكن في مسجد آخر، في مسجد المغفرة بالقرب من ميدان سفنكس، وغير بعيد عن مسجد الحصري خلف مسرح البالون، ونعود معه لنكتشف أن رواده أضحوا أكثر من ذي قبل، ويأتي الموعد فيذهب لقضاء العمرة كالعادة ولا يعود.

وكنت أنتظر عودته وكأني أنتظر الخلاص، كنت أتشبث بهذا الداعية الشاب وكأنه طوق النجاة، كان ليّن الجانب، وذا خطاب إنساني، تعلو كلماته أمارات الترغيب لا الترهيب، وكان إلى جانب ذلك دائم التأكيد على أننا الأمل، الشباب هم الأمل. كنت أندهش من هذا الذي يراهن على مراهقين، ويقسم أن النصر قادم على أيديهم، بل وعلى أيدي هذا الجيل بالذات. ويعود من جديد في مسجد أنشئ حديثاً بمدينة السادس من أكتوبر، مسجد الشيخ الحصري، لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد، لم نكن نجلس في مكان المصلى الحالي، كنا نصلي في مكان القاعات الآن، وينتقل الداعية الشاب من مسجد إلى مسجد وأنا أتبعه كظله

وكأني أنتظر الإجابة، وينتقل هو من محاضرة إلى أخرى تدور كلها في فلك الترغيب في الطاعة والالتزام، ويأتي فاصل الدعاء فيبكي الجميع إلاي، أنظر إليهم وألقي التهم على نفسي، إنني أنا العاصي ذو القلب القاسي.

كنا في رمضان وكنت أجلس في الصف الأول ناحية مدخل المسجد، رأيته يتقدم منفرداً ويدخل من الباب، لا حائل بيني وبينه، هل هي صدفة ألا ينتبه إليه من بين أكثر من ثلاثين ألف مصلّ إلا أنا؟ قمت إليه ونويت أسأله عن حالي، سلمت عليه وهممت أن أسأل، غير أني لم أقو على الحديث، هل هالني الموقف؟ وهل بذلك أكون قد ضيعت أمراً لن يتكرر لمثلي؟ صمت وفي لحظة صمتي تلك أدرك المصلون قدومه، فتلاشت الفرصة سريعاً ورأيتني أبتعد ليحل مكاني آخرون، أبتعد ويتقدمون، حتى صار بيني وبينه العشرات، وبيني وبين نفسي ازدادت التساؤلات.

نظرت حولي بعد سنوات من ملازمة الداعية الشاب فلم أجد من طرقوا الباب معي. عاد أخي لنزواته وترك المصحف وألقى المسواك جانباً، وكان لدي صديقان يأتيان تلك الندوات أحدهما ذهب للتيار السلفي وأطلق لحيته وصار يحذرني في كل مرة يلقاني من عمرو خالد وخطره على الأمة، ذلك أنه لا يملك سمت الدعاة والعلماء المسلمين، وأنه ليس بمتخصص لأنه خريج كلية التجارة، غير أنه لم ينتبه إلى أن الدعاة الذين يدعونني إليهم تخرجوا من كليات الألسن والإعلام والخدمة الاجتماعية!، الشيخ محمود المصري مثلاً خريج كلية الخدمة الاجتماعية والشيخ محمد حسان خريج كلية الإعلام

والشيخ أبو إسحاق الحويني خريج كلية الألسن، وتناسى صديقي هذا حاله قبل أن تطرق كلمات عمرو خالد باب قلبه، وأنها من انتشلته من هوة اللا هوية الدينية التي كان يحيا فيها وجعلته الآن الشاب الملتحي مقيم الصلاة الآتي فروض الله، أما الصديق الآخر فقد جاءت الندوات معه بالعكس فطرق باب الدنيا بكل قوته وأتى ما لم يكن يأتي من قبل من فروض المعصية.

أذكر حكاية أخرى دارت رحاها في إحدى ليالي عودتي من مسجد الحصري بمدينة السادس من أكتوبر. كان من الصعوبة بمكان أن أجد وسيلة نقل تخرجني من تلك الصحراء لتعيدني إلى قريتي كفر غطاطي، وكان سائقو وسائل النقل يستغلون تلك المعضلة كالعادة ويقومون برفع الأجرة المستحقة. كنا نرضخ لأننا لا نريد أن نقضي ليلتنا هكذا في العراء، بيد أنه في تلك الليلة وبعد أن تحركت بنا الحافلة حدث أن اعترضت سيدة مسنة على الأجرة المطلوبة، علمنا من الحديث أنها من قاطني المدينة وأنها تستقل الحافلات يومياً بأجرة أقل من تلك التي يطلبها السائق، ولما اشتد الخطب أصرت على دفع الأجرة المستحقة وفقط. قام السائق بإيقاف الحافلة وسط صحراء أكتوبر كي يضع السيدة المسنة جانباً في الطريق وكنا في الساعة الواحدة صباحاً، أي أنها قد تموت قبل أن يصل أحدهم إليها، هنا انتفض شاب بجوارنا معترضاً وكان أخي يصاحبني في تلك الليلة فآزر الشاب هو الآخر، وتبعه شاب ثالث فرابع حتى التحم الشباب جميعهم في الحافلة في منظومة لم أرها قبلاً في الشباب، ولم أرها بعد هذا التاريخ حتى ثورة يناير 2011!، وتصدر الأمر أحدنا وقرر

للسائق أن السيدة المسنة لن تترك الحافلة، وأن أيّاً منّا لن يدفع أكثر من الأجرة المستحقة، ولن نتركه يفعل فعلته تلك في سيدة مسنة، في النهاية رضخ السائق لثورة الشباب ورضي بالأجرة المستحقة ليس من السيدة المسنة وفقط، بل من جميع ركاب الحافلة. وضعت موقف أصدقائي ممن تحولوا لمسارات أخرى وموقف هؤلاء الشباب نصب عيني، وأدركت حينها أن لدينا حرية الاختيار بل والقوة على وضع اختياراتنا حيز التنفيذ، دون أن ننتسب لأحد، أو أن ننتظر العون من آخرين، وأنه من الغباء أن أضع آمالي جميعها على أمر واحد، إن تحقق تحققت معه وإن زال تلاشيت وتلاشت حياتي. قد ترون أن تلك المواقف عادية وبسيطة، غير أني تعلمت من الحياة أن أمورنا الجليلة ما هي إلا تراكيب بسيطة واحدة تلو الأخرى أصلت المفاهيم لدينا حتى تجذرت فينا وصار من الصعب قتلها في الخير والشر على السواء. لهذا لم أترك تلك المواقف تمر هكذا وبدأت أكسر حواجزي بقوة أكبر وأخطو إلى الطريق بخطو أسرع، ولم يقف أمري عند عمرو خالد وفقط، بل قلت لأبحث عند آخرين، فعجزي عن طرح السؤال قد يكون لأن محاضرات عمرو خالد لم تعطني تقنيناً لتساؤلاتي يساعدني على إخراجها في شكل أوضح، أو أنه لم يكتسب ثقتي في كونه قد يتعدى مرحلة الترغيب لمراحل أخرى تسعى للتأصيل والتصدر للفتوى والتساؤلات.

وقررت طرق الباب الذي كان يجنبنا إياه شيوخنا في الإخوان، باب السلفية، لم يكن في نيّتي الانضمام للتيار السلفي، فقط أردت أن أنهل من علمهم. كانوا غزيري المحاضرات والندوات بتشعب

صنوفها، ولم يكن هناك هذا التضييق الأمني عليهم مثلما كان على الإخوان! وصرت أحضر ندوات شبه يومية، في الفقه والعقيدة والسير والحديث، وصرت أنتقل من شيخ لآخر حتى عجزت عن حصرهم، غير أني أذكر منهم كمثال الشيخ السلفي مازن السرساوي، ذلك أنه في ندوة من الندوات طرح عليه السائل قولاً يستوضح فيه مدى حرمة دراسة القانون في كليات الحقوق. اهتممت بالسؤال حينها لأنني كنت طالباً في كلية الحقوق، فرد الشيخ قائلاً: إننا نعاملها من باب الضرورة. الشيخ يرى أن هذا المجال لو ترك لرجال ليسوا ذوي تقوى فهذا يعني أن أخاك المسلم حينما يريد حقه سيقع فريسة لمحام لا يملك من تقوى الله شيئاً، فمن باب أولى أن نصبر على البلاء ونقبل بدراسة القانون في الجامعات حتى يمكن الله لشريعته، مع الوضع في الاعتبار أنها الطريق الوحيد الآن للإتيان بالحقوق لمستحقيها. وكانت تلك هي المحاضرة الأولى والأخيرة التي حضرتها لهذا الشيخ، فكيف لي أن أجد بغيتي الساعية لإدراك مكنونات الكون لدى شيخ لا يتورع عن تحريم درب من دروب العلم أو يجيزه على مضض؟!

ممن حضرت لهم أيضاً في العام 2003 كان الشيخ سابقاً صفوت حجازي. كان قد لمع نجمه حديثاً في أوساط الشباب. كان يلقي محاضراته في أحد المساجد بحي الدقي. حضرت له مرتين أو ثلاثاً ولم أكمل. في نفس الوقت كنت أحضر حلقات تفسير القرآن لأحد شيوخ السلفية بأحد المساجد الواقعة بحي غمرة، فلما سألني: لماذا لم أستمر مع الشيخ صفوت حجازي؟ قلت له ببساطة لم أفهم من محاضراته شيئاً، هو يصول ويجول ويسرد ويحكي غير أنك إن أردت

أن تمسك بمكنون المحاضرة ما تمكنت، وكثيراً ما تأخذه شهوة الكلام ليخرج عن متن المحاضرة إلى شروح ليس لها علاقة بالمحاضرة أصلاً. ابتسم حينها الشيخ وقال لي: من الجيد أنك أدركت هذا باكرا، غير أنه وللأسف وبعد تسع سنوات أضحى هذا الذي لم أفهمه في العام 2003 أحد المتحدثين باسم الثورة، حينها أدركت لماذا لم نفهم الثورة المصرية حتى الآن!

لمع أيضاً نجم الشيخ مسعد أنور أحد وجوه القنوات الدينية الآن. كنا في العام 2004 تقريباً عندما ذهبت إليه في أحد المساجد الواقعة بالوايلي على ما أذكر، كان شيخاً لطيفاً كثير الضحك، يملك القدرة على تكفير وتجهيل الجميع دون أن يغضبك، بل يجعلك تضحك ضحكاً هستيريّاً دون أن تلحظ أنه يتهمك بالحمق والجهل، ولكني كنت أبحث عن الحقيقة لا عن مطلق جيد للنكات.

ممن لم يسعفني الحظ أن أحضر ندواتهم كان الشيخ محمد حسين يعقوب، فارس غزوة الصناديق. كنت كلما علمت بقدومه لأحد المساجد تأهبت للذهاب لكنه ما كان يلبث أن يُمنع من قبل الأمن، حتى كان ذلك اليوم الذي ذابت فيه قدماي سيراً لبضعة كيلو مترات بحي مدينة نصر في ظهيرة اشتد حرها بحثاً عن هذا المسجد الذي قيل لي إنه سيحاضر فيه، ولما وصلت علمت أن الأمن قام بمنعه فقلت لا أحضر له أبداً، وكأن الله رأف بحالي وأراد لي أن أظل سليم العقل بعدم الإنصات لشيخنا الجليل!

في تلك الفترة التي طرقت فيها أبواب السلفية لاحظت أن كوني غير

ملتح يسبب لي مضايقات ونفوراً من قبل الشباب ممن يحضرون تلك الندوات. حاولت أن أنخرط فيهم غير أنهم كانوا يتجنبوني، يقولون: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، وكوني لست بصاحب لحية فإن هذا الأمر يطعن في عقيدتي ومدى صدق توبتي لديهم. هنا قررت أن أطلق اللحية ليس عن يقين بها أكثر منها رغبة في اختراق هذا العالم، وقد كان، فإطلاق لحيتي فتح لي آفاقهم وجعلني واحداً منهم، وتحولت النظرة وكأني أحد صحابة رسول الله، غير أن هذا الأمر لاقى رفضاً على الوجه الآخر من أحد أساتذتي داخل جماعة الإخوان المسلمين، والذي طلب مني صراحة حلق اللحية. قال: الضرورات تبيح المحظورات وإن إطلاق اللحية قد يوجه أنظار جهاز أمن الدولة نحوي، وكان كلما قابلني طلب مني حلقها حتى وصل به الحال إلى الأمر بعنف. وتعجبت من هذا المشهد، فهؤلاء يحصرون وجودي بينهم على إعفاء لحيتي وهؤلاء يرفضون إعفاء تلك اللحية، والطرفان في الأساس مسلمون من أهل السنة والجماعة، غير أن هذا يقول إنها فريضة، وذاك يقول ليست بفريضة، وهذا الأمر أيضاً حينما وضعته نصب عيني علمت أنه ما من أمر مسلم به داخل تلك الدوائر، فلا حتميات وأنني يجب أن أُعمل عقلي أنا لا عقلهم هم.

ظللت على مدار عام كامل أحيا داخل تلك الدائرة السلفية بلحيتي المعفاة وجلبابي الأبيض ومسواكي الذي لا يفارق يدي، بيد أني وجدت نفسي أحصل على سمتهم ووجدتني أنتقل من دائرة الإخوان إلى دائرة أكثر تشدداً تعد دائرة الإخوان بالنسبة إليها إحدى دوائر العلمانية الشاملة وليست الجزئية فقط! فقمت بحلق لحيتي وكانت

تلك هي القطيعة، وكأني أدركت إحدى مسببات الردة، غير أني أطلقتها لأمر في نفس يعقوب وقد أتيته. سوى أني لا أخفيكم سراً حينما أقول إن هذا العالم بعلومه الغزيرة تلك ومقارنتها بالوهن الفكري والعلمي لدى الجماعة، أشعرني كم أن الإخوان لا يملكون أية إجابة عن أي سؤال، وأنه لزاماً عليّ أن أتركهم الآن، فرحلة بحثي داخل دائرتهم لا طائل من ورائها.

الخروج الثاني

بريق المطواة أذهب العقل عني فرأيتني أسبح في عالم آخر، وكأني أزهد الحياة ولا أهاب الموت، بل وكأني ميت حقاً. كانت بضعة سنتيمترات تفصلني عن الموت، غير أن طلقات الرصاص التي دوت وتلك الأصوات التي صدرت عن فرقعات لأشياء تسقط بين قدمي وأنا ألهث هارباً من القدر، أشعرتني بإحساس المقاتل على الجبهة، علما بأني أسير في شوارع القاهرة وليس في صحراء سيناء.

هل كنت أهرب خوفاً؟ أم أن طائر الموت الذي يحلق حول رأسي أعطاني العذر في أن ألملم أشلاء رجولتي وأنا أركض بعيداً عن موطن الخطر. قدمي التي أثقلتني جعلتني أعود لحاضري نوعاً ما فأدرك أنني أمسك فتاة بيميني وأخرى بيسراي وأنا أركض، وفي خضم هذا التيه أدركت أنهما الطبيبة والصديقة رانيا رضا والأخرى هي الصديقة والناشطة رغدة الدخاخني، بل ذهب التيه عن عقلي شيئاً فشيئاً ليدرك أنني أركض بهما هرباً من قدر أضحى محتوماً لا خوفاً من أن أقتل، حتى وإن كنت أشعر بالخوف في مواقف أخرى غير أن الحالة الآن حملتني فوق خوفي لخوف أعظم عليهما. كنت أقبض على يديهما وكأنهما التحمتا بيدي فصرنا واحداً لا ينفصل،

مهرولاً في طريق عودتي من منطقة البلطجية والتي تحولت فجأة لدولة لا ملك لها سواهم.

رأيت مستشفى الدمرداش أمامي فهرولت تجاهها علّها ترحم ضعفاً ألمّ بي وبهما غير أن الرحمة كانت قد ارتفعت إلى السماء في تلك اللحظة بالذات، فلم نر سوى هراوات الأمن المركزي تبطش بكل من يسقط في جعبتهم، وتضرب بتلذذ وكأنهم يفرغون شحنات حملتها صدورهم طويلا في انتظار هذا اليوم الذي صار لهم عيداً. ضاقت علينا الأرض بما رحبت فأمامنا هراوات الشرطة وغياهب معتقلاتهم التي تفتك بالثوار، وخلفنا أسلحة براقة يحملها شراذم من البشر يحملون هيئة الإنس غير أن القتل صار لحيواتهم عنواناً. قلت الآن أقتل واستسلمت هنيهة، رددت الشهادة وهيأت نفسي للحاق بمن ذهب، إلا أني عدت فجأة لأرى دمعات تساقطت من كلتا الفتاتين ألهبت صدري. لم يكن خوفاً من الموت أكثر منه سؤالاً: ماذا فعلنا كي تقتلونا هكذا كالخراف؟! ناديت السماء أن أمهليني الحياة فقط كي أخرج بهما ومن ثم خذيها فلا حاجة لي أن أحيا بين من صار القتل أقرب عنوان لهم.

❊ ❊ ❊

لم أصدق أذني حينما أتتها تلك الموجات التي حملت أحرفاً وكلمات عبر أسلاك الهاتف لتخبرها أنه تم قبولي في دورة تنمية مهارات البحث في مصادر المعرفة التي تقيمها وزارة الثقافة تحت إشراف دار الكتب والوثائق القومية. تذكرت تلك الورقات الإحدى عشرة التي حملت التعريف بصديقي عماد عبد الرحمن المتقدم للدورة والتي قارنتها بما يقل عن نصف ورقة حملت حياتي ومنجزاتها، بل وتلك

الشهادات العلمية والدورات التي زينت الحاضرين حتى جعلتني في آخر الصف. قلت لنفسي ربما أحدهم يمزح، غير أنه لا أحد سواي أنا والدكتور حامد محمد يعلم بهذا الأمر، دب خاطر في ذهني قائلاً: ربما كان حامد! أبعدت الخاطر عن عقلي سريعاً وقلت لم لا يكون حقيقة؟

تذكرت تلك الخطوات المرتعشة التي ساقتني إلى غرفة الاختبار داخل مبني دار الكتب والوثائق القومية الواقع على كورنيش النيل، وتذكرت معها تلك اللعنات التي صببتها على نفسي أن وافقتها على الحضور معتقداً أني بهذا ألوح براية الإهانة لكرامتي إن هي فشلت في هذا الاختبار، غير أن الأمر قد نفذ فتوجهت مع بعض المتقدمين للاختبار لأماكن الجلوس، وانتظرت ورقة توزع علينا تحوي تساؤلات نجيب عنها كالمعتاد في بلدي، إلا أن ما حدث كان غريباً وجديداً على مسامعي، وجدت أحد الممتحنين يسأل الجالس بجواري: هل تقرأ الصحف والمجلات؟! قلت في نفسي ربما يمهدون للاختبار بمحاولة تهدئة الأمر وإزالة المخاوف من نفوسنا، فرد من بجواري قائلاً: نعم، فسأل الممتحن هذا الجالس بجواري قائلاً: وأي الجرائد تقرأ؟ فرد عليه قائلا: جريدة الدستور، فسأل الممتحن ثالثاً: وما اسم رئيس تحرير الدستور؟ فرد قائلا: إبراهيم عيسى.

لم أكن حتى اللحظة قد أدركت مغزى الجلسة وتساؤلاتها، هل بدأ الاختبار حقاً؟ وجدت المحاضر يلتفت إلى قائلاً: هل تعرف الجبرتي؟! قلت: نعم، وعقبت إنه صاحب كتاب التاريخ الأشهر «تاريخ الجبرتي»، ووجدتني أسترسل في الكلام قائلاً: غير أني لم أقرأ له، وأضفت أنني أعتمد في قراءاتي على كتب التاريخ التي سطرها

معاصرون، فرد الممتحن قائلاً: لكن تلك الكتب تحمل أخطاء تاريخية في مجملها لأنها خرجت عن أناس غير متخصصين في دراسة هذا الأمر ولا تعتمد على الوثيقة ومصادر المعلومة من منبعها، فعقبت قائلاً: فلهذا أتيت هنا كي أتعلم من أهل الثقة. ندّت عن وجه الممتحن وكان الأستاذ عماد هلال، أستاذ التاريخ بجامعة قناة السويس، ابتسامة خفيفة بعد ردّي ومن ثم حول دفة الأسئلة للآخرين. كانت الأسئلة في مجملها تسعى لاكتشاف الباحث عن المعرفة بداخلنا، لم تكن تبحث عن أكثرنا حفظاً ولا أعظمنا شهادات ودورات، إنما كانت تبحث عن حب المعرفة بداخلنا، فلن يهتم بالبحث عن مصادر المعرفة سوى ظمآن لدروبها.

أخرجتني تلك الدورة من تيه دب في عقلي لسنوات، بدأ منذ تحللي بالكلية أو هكذا ظننت من تبعية الإخوان في العام 2005، حتى العام 2009 وقت التحاقي بتلك الدورة التي بدلت مسار حياتي، فلم يكن من السهل الخروج من ربقتهم، فالدين والجماعة صارا مفهوماً واحداً، فأنا إن تركتهم تركت الدين، هم الأصل، هم الفارس المنقذ لتلك الضيعة التي تدب في أوساط المسلمين، فتركي لهم يعني بمفهوم المخالفة أنني أنا العبد العاصي، وأنني أنا الذي عجزت عن التأقلم في صفوفهم، فاخترت المعصية بديلا لهم.

لم يكن ذهني يدرك بعد أن ترك الإخوان لا يعني بالضرورة ترك الدين، وأن مخالفتهم لا تستوجب المعصية كي أثبت لنفسي أني تحللت منهم. وكان تيه آخر أخذني في دروبه لسنوات، غلّفه البعد عن الدين، لا أقول إلحاداً بالمعنى الدارج، فالإلحاد يستوجب إنكار وجود

الله، أما أنا فكنت أقف دائماً عند مفهوم الإله، أما ما عداه فقد لفظته بالكلية. هل كرهتهم ولهذا كرهت الدين فيهم؟ أم أنني أردت أن أثبت لنفسي أني تركتهم؟ كان الأمر جد صعباً، الآن تحللت من المسمى، غير أني لا زلت أحيا الفكر والمنهج، فالآخر كافر طالما لم يوافقني في مفهوم إقامة الدولة الإسلامية من منظوري، أو على أقل تقدير عاص يستتاب، والغناء حرام، والفن ملهاة، والقراءة درجات، العلم الشرعي فقط هو الذي ينفع، حتى الآن أستكثر على نفسي أن أشتري رواية مرتفعة الثمن، كنت أرى أنني هكذا ألقي بمالي أرضاً دون فائدة من ورائه، لا زلت لا أتجرأ إلا على شراء كتبهم، وما زالت في نفسي شبهة تجاه العشق، ولا زلت أنظر للمرأة تلك النظرة الحسية التي تخرجها من إنسانيتها لأداة يمارس معها الرجل الجنس وفقط، ولا زلت أحيا داخل نظرية المؤامرة، وأن العالم أجمع تحالف ضد الدين والمسلمين، وكأن الغرب ترك أموره وفرغ للمسلمين وقضاياهم. وانغمست في المعصية بمفهوم الجماعة، وعشت الحياة وصرت عالماً بدروبها، وطرقت أبواب النساء، وتلمست الخمر والمخدرات، وكدت أقتل نفسي في أحيان أخرى لأنزع من الدنيا هذا الشاب الذي حل عليه غضب الإله، غير أن الهم صرعني فلزمت بيتي لسنوات، هل كانت حالة اكتئاب اعترضت رحلتي؟ ربما.

المعضلة هنا أنني تركت الدائرة وخرجت، فأضحى لزاماً عليّ أن أنشئ عالمي الخاص والعام، أن أرى بعيني لا بأعينهم، أن أتخذ قراري لا قرارهم، أن أملك مرجعيتي لا مرجعيتهم، وأن أناضل من أجل قضيتي لا قضيتهم، أن أكون أنا لا هم.

حتى كان شهر يناير 2011، طارت إلى الأسماع أنباء ثورة تونس، ومعها تيقظت الأذهان على إمكانية الثورة، وعدم استحالة التغيير. وظهرت الدعوة على مواقع التواصل الاجتماعي لتظاهرة في يوم الـ 25 من يناير 2011، والذي يواكب احتفالية قوات الشرطة بعيدها تعبيراً من الشباب عن رفضهم وسائل التعذيب والقهر التي تتبعها المؤسسة الأمنية تجاه المتظاهرين. قوبلت الدعوات باهتمام في أوساط عدة، لاسيما وثورة تونس ما زالت لم تهدأ نارها بعد، بيد أني على عكس بعض الشباب نظرت إليها نظرة أكثر تشاؤمية، وقلت في نفسي مظاهرة كما في السابق تنتهي بسحل الشباب وخروج الصحف القومية علينا في أعداد اليوم التالي لتمجد حب الشعب للرئيس وتسطر في صفحاتها الرئيسية فرحة بفشل الإضراب أو عدم استجابة الشعب للتظاهرات. ولم أتورع عن كتابة رؤيتي تلك على حائطي الشخصي على الفيس بوك، وما لبث أن علق الصديق طارق رمضان على كلماتي بكلمتين وفقط، غير أنهما قلبا مسار حياتي رأساً على عقب، وكانا إيذاناً بالعودة الحقيقية لنفسي بعيداً عن هذا الذي قتلني سابقاً وشوه أموري جميعها، سطر قائلاً: إذا بليتم.... واكتفى بذلك.

أراد الصديق أن يخبرني بكلمات موجزة أنه إن أصابتكم بلوى فاستتروا ولا تصيبوا الآخرين من جزعكم حتى لا توهنوا قوتهم وتكونوا عبئاً عليهم. شعرت بمن صفعني على وجهي بقوة أفقدتني توازني ومن ثم أعادتني إلى صوابي لأدرك أن الأمر جلل، وأن هذا اليوم لابد وألا يمر هكذا، وأنني أملك قراري، الآن ملكت قراري دون انتظار الأمر من أعلى، ونزلت للميدان في يوم الجمعة 28 يناير 2011،

وقررت ألا أعود حتى يتحقق لنا النصر أو أقتل دونه. المضحك في الأمر أن جماعة الإخوان هي أيضاً لم تشترك في التظاهرات قبل ذلك اليوم وكأنني لا زلت أنتظر موافقتهم.

في يوم الثلاثاء 1 فبراير من العام 2011 خرج علينا الرئيس السابق محمد حسني مبارك بخطاب ملأه العناد، متحدياً الشعب باعثاً رسالة بأنه لن يرحل إلا جثّة هامدة، غير ذلك فلا، وغلّف خطابه بنبرة عاطفية من تلك التي يهواها البسطاء. لم أدرك أنا والكثير من أصدقائي ماذا نفعل؟، فلم يسبق أن قمنا بثورة قبل هذا الوقت. هل نستمر في الميدان أم نرضى بمهلة الأشهر الستة التي حددها مبارك كفترة انتقالية تنتقل فيها السلطة عن طريق انتخابات شرعية، إلا أني ملت لجانب أصدقائي حين قرروا ترك الميدان. وأثناء خروجي من الميدان استوقفني مراسل إحدى الصحف الإسبانية وطرح سؤالا يستفسر فيه عن رد فعل الثوار، ففوجئت بنفسي أشتعل غضباً وأردّد في وجهه هذا الهتاف الذي سرى بعدها في الميدان (يوم الجمعة العصر هنكون عند القصر) وتركته وذهبت، وتركت ورائي تساؤلاً حيرني، كيف لي أن أترك الميدان في نفس الوقت الذي أردد فيه هذا الهتاف الذي لا يقبل الحل الإصلاحي غير الثوري؟! فلا مانع لديّ أن أتعامل مع النظام من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه علما بأني أدرك أنهم كالأفعى التي تنتظر الفرصة لتثب على فريستها، وحضرت إلى ذهني مفاوضات الإخوان مع النظام وعمر سليمان أثناء الثورة لاحتواء الأزمة، وأنهم لم يكونوا ثوريين في تعاملهم مع الأمر، وكونهم يميلون للحل الأسهل وهو علاج العطب دون بتر العضو الفاسد، علما بأن هذا العطب قد يسري في الجسد

فيتسبب بموته، إلا أنهم لا يملكون جرأة بتر العضو الفاسد. هل لا زلت أحملهم داخلي؟!

حضر يوم الأربعاء المشئوم، واستيقظت من نومي عصراً على مكالمة أحد الأصدقاء يخبرني أن مؤيدين للرئيس وآخرين تابعين للثوار يشتبكون الآن في ميدان التحرير، فأدرت جهاز التلفاز لأطلع على الأمر، فوجدت الأمر عادياً على القنوات المصرية الخاصة والمحلية، ورأيت في شريط الأخبار على القناة المصرية نفياً لما تردد عن هجوم بلطجية بالجمال والخيول على ثوار التحرير.

أدرت المؤشر وتوجهت صوب قناة «الجزيرة» لأجدها تبث مقاطع عن اشتباكات بين مدنيين، لم يترجم ذهني الأمر سريعاً، واعتقدت أنها اشتباكات بين مصريين فأصابني الهلع على أبناء وطني الذين يسقطون قتلى في الوقت الذي لا يكترث لهم هذا الذي يقبع في قصر العروبة، فكرت ماذا أفعل؟! تناولت هاتفي وأخذت أتصل ببعض رجالات الإخـوان من قريتي في ميدان التحرير، وكنت من السذاجة حتى أطالبهم بالعودة وترك الميدان لأننا هكذا نقتل بعضنا البعض، غير أن أحد كوادر الجماعة في قريتي رد على مكالمتي الهاتفية قائلاً: (لو سِبْنا الميدان الإخوان هيندبحوا)، قلت في نفسي متعجباً أهي من أجل مصر أم من أجل الجماعة؟ ليته قال لن نرحل قبل أن يرحل! وكان مسماراً دق في نعش ألوهيتهم وأنني أنا العاصي، وبدأ الطريق لإنشاء عالمي الخاص بعيداً عنهم دون أن أشعر بالذنب واستحقاق التوبة، فهم ليسوا الدين، إنما جماعة اتخذت الدين طريقاً للوصول إلى هدفها، قد ترى أن الدين بمفهومها هو الحل، ولكن مخالفتي لها لن تكون خروجاً من ربقة الدين أكثر منها مخالفة في الفكر وآليات الإصلاح.

غير أن بقاء الجماعة من أجل نفسها والحق يقال حال دون سيطرة النظام على مجريات الأمور، وتحولت تلك الموقعة المسماة بـ«موقعة الجمل» للقشة التي قصمت ظهر النظام، وكانت أيضاً القشة التي قصمت ظهري ذلك أنني لم أكن في ظهر الثوار حينها، بيد أني قلت في قرارة نفسي: لا أترك الميدان أبداً، وعزائي أني كنت في الأمر منذ مبدئه.

* * *

أتتني الإجابة من السماء حين رأيت أحد العمال بالمستشفى يطلب منا اللحاق به لغرفة جانبية بعيداً عن أعين البلطجية وعساكر الأمن المركزي، وعلى الرغم من شكوكي التي لها سوابقها من أن يكون ضمن عناصر شرطة سرية تستدرجنا إلا أنني لم أجد أمامي طريقاً آخر، فكل الطرق تقود إلى الموت. توجهت خلفه وبمجرد أن وصلنا إلى الغرفة انهارت الفتاتان في بكاء أفقدني توازني وزاد العبء على كاهلي فأبيت اللحاق بهما داخل الغرفة ووقفت على الباب. في تلك اللحظة مر شريط ذكريات الثورة أمام عيني أرى استفتاء مارس 2011، وفض اعتصام مارس 2011، وفض اعتصام أبريل 2011، وأحداث مسرح البالون، وأحداث محمد محمود الأولى والثانية، وأحداث مجلس الوزراء والعباسية، وتذكرت كيف أنه تيقن لي في كل تلك الأحداث من ردة فعل الجماعة أنها لا تختلف كثيراً عن الأحزاب السياسية التي تقدم المصلحة الحزبية في المقام الأول، وأنها ليست ديناً، وأنني لم أكفر بترك دائرتها.

وأخيراً وليس آخراً تلك الاعتصامات التي أعقبت الإطاحة بمرشح الرئاسة حازم صلاح أبو إسماعيل. كنت أنا وأصدقائي قد ذهبنا

لتظاهرات العباسية فقط لرفض ذبح أنصار حازم صلاح، حتى وإن كنا نخالفهم المشرب إلا أننا نشاركهم إنسانيتهم التي أهدرت، في الوقت الذي اتهمهم الإخوان بأنهم مدفوعون من العسكر لإعطائهم الذريعة للانقلاب على مجريات الأمور، دائماً كانت السلطة أمام أعينهم في كل قرار يتخذونه!

حاول الرجل دفعي للدخول غير أني طلبت منه أن يتركنا ننصرف، فلم يجبرنا على البقاء بالغرفة وأرسل معنا آخر ساعدنا على المرور من طريق خلفي بعيداً عن أعين عساكر الأمن المركزي. توجهت مباشرة لمحطة مترو الدمرداش لأجد أنني لابد أن أمر بهما بين اشتباكات ساخنة بين الطرفين، غير أنها مع ذلك تسمح بالمرور للحاق بالمترو، ولكن إن مرت عربات المترو تلك فلن أتمكن من اللحاق بأخرى، ذلك أن الأمر سيصير أكثر تأزماً. وكان قرار مصيرياً يجب أن يتخذ في أقل من ثانية، يترتب عليه إما الموت أو النجاة كما ترتب في ذهني حينها، وقد كان، وتوجهت بهم مسرعاً مخترقاً أماكن الاشتباك وقفزنا داخل عربة المترو ليغلق الباب مباشرة بعد دخولنا وتنطلق العربة تاركة خلفنا إخوة لنا لا ندرك مصيرهم، إلا أن الخلفية حوت كلمات الصديق والثائر مصطفى الحلوجي حينما طلب مني أن أخرج بالفتاتين من قلب الأحداث خشية أن يصيبهما أمر بعد أن ظهر لنا أن العسكر لن يتورعوا عن القتل وأنهم قد بيتوا النية على سحل كل الموجودين. خرجنا وفي الذهن مصطفى الحلوجي والناشط محمد هشام وآخرين قرروا أن يموتوا كي تعيش مصر، بيد أني تلمست شعوراً داخل عربة المترو حينها أن جنة الإخوان مصطنعة، وأني عائد من جنتهم لجنة أخرى هي الأصوب.

لم أتوقع أن يأتي الرد هكذا سريعاً، لم أتوقع أن يقرأ لي أحدهم من الأساس، تلك النوعية من القراءات تدخل في عرف الإخوان والتيار الإسلامي عامة تحت بند العلم الذي لا ينفع، إلا أن تلك المكالمة الهاتفية التي جاءتني من أحد كوادر الإخوان بالقرية خيبت ظني.

كانت مجلة «المصور» قد نشرت بعض حلقات كتابي هذا ووقعت الحلقة الأولى في يد بعض شباب القرية ووصل الأمر للجماعة، فحدثني أحد كوادرهم وأبدى استياءً شديداً من مضمون الكتاب وأول ما قال هو تكذيب كوني من الإخوان، واعتبر أنني أكذب عليهم، وأنهى حديثه بأن قال ثلاثاً: حسبي الله ونعم الوكيل، وأغلق الهاتف فجأة!

غير أن صداماً آخر مع أحد شباب الجماعة ترجم الأمر سريعاً، ذلك أن الشاب قال لي إنه ليس كل من انضم لأشبال الجماعة قد صار إخوانياً.

هم يلخّصون الأمر في أن من يدعي الانتساب لهذا التنظيم يجب أن يكون عضواً عاملاً في الجماعة، مقيداً بمكتب الإرشاد، يدفع الاشتراك بشكل دوري، على عاتقه تكليفات تجاه جماعه الإخوان

المسلمين، متناسين أن هناك الملايين من الأشبال الصغار يسقطون في براثنهم وتُشوّه أفكارهم ومن ثم يلقى بهم بعيداً لأنهم يفتقدون الطاعة أو أنهم متمردون كثيرو السؤال، غير عابئين بحال هؤلاء الأطفال، والذين تشكلت معتقداتهم على هوى الإخوان وهي ما زالت في طور النشأة غضة لينة سهلة التشكيل ومن ثم يتركون فجأة لأنهم لا يناسبون الجماعة ويتركون هكذا في مهب الريح، فإما أن يجدف هؤلاء حتى يخرجوا سالمين من هذا الموج الهادر ـ وأرجو أن أكون منهم ـ وإما أن يظلوا عالقين هكذا لا هم أصحاب فكرهم الخاص ولا هم بمحسوبين حقيقة على التيار ـ وهؤلاء كثر ممن يقفون بجوار الجماعة ويعطونها القوة في كل انتخابات ـ وهناك من ينجرفون في الهاوية ويحيون فيها حتى الممات وهؤلاء لا طائل من ورائهم لا لهم ولا لأوطانهم وهؤلاء ليسوا بقلة..

ولو افترضنا أنني من هؤلاء الذين يجدفون لإنقاذ أنفسهم من هذا الموج الهادر فأنا هنا لا أكذب، ذلك أني أسطر قصة عودتي من تلك الجنة المزعومة، فأنا لم أخرج عليكم لأخبركم أنني عضو مكتب شورى الجماعة، ولم أتحدث عن إدارياتها ولا تقسيماتها التنظيمية داخل قريتي. أنا لم أتحدث عن سيرة المرشد، أنا هنا أتحدث عن سيرة سامح فايز، هل يريدون حتى منعي من حقي في الحديث عن نفسي؟!

فإن كان من كاذب فلن يكون سواهم، ذلك أنهم يدعون أنهم يدعون الناس للهداية بعد الضلال، في حين أنهم فقط يختارون جنودهم في معركتهم من أجل إقامة دولتهم.

غير أني في ذات الوقت قد أكون قد تحاملت عليهم في بعض الأمور، ذلك أن فكرهم الذي أغرقونا به في الصغر لم يتشكل بالكلية، هم فقط وضعوا البذرة ومن ثم حدث الصدام وتركت دائرتهم قبل أن تتشكل معالم تلك البذرة، فربما أنني جنحت إلى طريق الخطأ في إدراك بعض الأمور، ومن ثم نسبتها إلى تربيتهم، غير أنه حتى وإن كنت جنحت في تفسير بعض الأمور، فعلى عاتقهم يسقط الأمر، ذلك أنهم ألقوا البذرة في أرض وتركوها دون أن يكملوا زرعها أو حتى يطهروها منهم!

فكنت أنا أغزل حلقات تركي وأحيا آلام هذا الترك في الوقت الذي لم يكن يعنيهم أمري، وكأنهم ليسوا المسئولين عن تلك المعاناة التي ألمت بي.

لقد ذكرت في بداية كتابي أنني أردت أن أعرف لماذا تمردت عليهم لأدرك كنه الذي أود أن أحياه في المستقبل، فأنا في البداية أود أن أنبه أن جماعة الإخوان لا تعنيني في شيء، ذلك أنني لا أعني لها شيئاً، فكما كانوا يعلموننا داخل الدائرة هذا البيت الشعري الذي يجسد موقفهم من مخالفيهم حينما يقول الشاعر:

لو أنَّ كل كلب عوى ألقمته حجراً لصار الصخر مثقالاً بدينار

هكذا ينظر الإخوان للآخر، ولا تبهركم تلك الكلمات الرنانة التي صدّروها للشارع المصري من كونهم يقبلون الخلاف ويحترمون الآخر ويضعون المعارضة قدرها الذي تستحقه. هم إن فعلوا ذلك خالفوا هدفهم الذي يسعون إليه، الإخوان يسعون لهدف ولن يتنازلوا عنه أبد الدهر، هدف إقامة الخلافة الإسلامية، وإنشاء الخلافة التي تكون

كعبتها الإخوان المسلمين، وهذا الهدف بالنسبة للإخوان يمثل النهاية، فلا دولة ولا معارضة ولا آخر حينها، فحين تقام الخلافة الإسلامية ويحكم الخليفة الإخواني وتتحول مصر إلى ولاية فلن يكون هناك آخر، وإن تعامل الإخوان مع الآخر الآن فهم يتعاملون معه من باب الضرورة حتى يصلوا للمراد.

لما سبق فإنه لا يعنيني الإخوان كثيراً، إنما أعني بنفسي التي عبثت لسنوات في دروب التيه، ما سطرت لكم كان مجرد وقفة مع النفس، أسلحتي فيها لماذا؟ كيف؟ أين؟ ومتي؟ لماذا تركت الماضي؟ وأين أنا الآن؟ وكيف أخرج من التيه؟ ومتى أصل؟

لا أقول ضاعت سنوات من عمري، إنما أقول أثقلتني التجارب، ولأن أقتل في دروب البحث خير لي من أن أحيا كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

تذكرت قول السائل الذي قال: لماذا الآن؟ مستفسراً عن توقيت كتابي، وأعدت السؤال على نفسي لماذا الآن؟!، غير أن الإجابة ليست ببعيدة على كل ذي لب، لو أننا وضعنا الثورة المصرية في يناير 2011 بين كلمتين وقلنا قبل وبعد لأدركنا المغزى.

قبل الثورة كان الأمر متأزماً والهمم متدنية، واليأس والتخبط هو سمت الغالبية من الشباب وأنا منهم، فما كان يعنيني أن أبحث عن سر خروجي من الإخوان في الوقت الذي كنت أتمنى فيه أن أخرج من الدنيا.

بعد الثورة تبدلت الأمور، بلغت الهمم عنان السماء وشطح الشعب

في أمانيه وأدركنا مصطلحات كنا تناسيناها، مثل مصطلح العزة والكرامة، والحرية، والاستشراف لغد أفضل، وكانت تلك البداية. فور أن بدأت في لملمة شتات نفسي وأدركت أنها باتت ذات قيمة قلت أبدأ، غير أني تعثرت مع أول منعطف، ذلك أني لم أكن على أرض صلبة، ولا أملك رؤية ولا هدفاً، أو أن رؤيتي وهدفي في حياتي السابقة كانا قد شابهما العطب بعد طول بحث أضنى القلب، فكان لابد من إزالة تلك الأتربة لتتضح الرؤية، وفي تلك الكلمات السابقة ألخص قصة كتابي.

فلما أردت ذلك أسقطت قلمي على وريقاتي وأخرجت من صدري آهاتي بشكل أحرف زينت تلك الورقات. سوى أني في البداية لم أكن أنوي أن أسطّر كتابي، بل لم أكن أظنني أملك تلك القدرة، كانت مجرد تدوينة على مدونتي حاولت أن أجيب فيها عن تساؤلات الأصدقاء التي انحصرت جلها في السؤال الأشهر: لماذا تركت الإخوان وفكرهم ؟، غير أني اكتشفت مع نهاية التدوينة الأولى أن الأمر أكبر من أن يسطر في مجرد تدوينة واحدة، فتبعتها بعد طلب من الأصدقاء ورغبة خالجتني بتدوينة ثانية وقلت ربما أكتفي، وأتبعت الثانية بالثالثة والرابعة والخامسة، وفي كل تدوينة كنت أظن أن الأمر قد انتهى وأنني لن أكتب شيئاً آخر. حتى كان الذي بين أيديكم الآن.

لولا هؤلاء ما كان هذا الكتاب

أحمد صبري أبو الفتوح، شيخ الطريقة السرسية، وصاحب ملحمتها التي ألهمتني روح المعركة... مولانا حامد محمد الصيدلي الأديب... رجل السودان المطارد الصحابي الروائي حمور زيادة... حسام محفوظ البسمة التي ننتظر أن تسقط على ورقة مطبوعة.. ثاني اثنين إذ هما في الحياة لن يكون سوى الشهيد الحي القاص أحمد سعيد.. مترجمي وكاتب أسراري المصحح اللغوي شريف رفاعي... أنصاري ممن آووني بعد الهجر من الإخوان... شيخ حارة الأدباء الشاعر شعبان يوسف.. رجل القانون والمفكر ثروت الخرباوي... زوجتي صابرين عيد التي تحملتني في لحظات جنوني... لكم يا أصحابي أهدي دعوتي!

المحتويات



سامح فايز شاب من شباب مصر، حين تراه ستدرك لماذا نجحت الثورة في الإطاحة بمبارك، ستدرك أن هناك جيلاً لم يقبل الثوابت التي تربّت عليها أجيال عديدة فقرر أن يثور على النمط الاستبدادي الذي عاش وعشّش في العقول والأفئدة.

كان سامح إخوانيا منذ طفولته غير أنه لم يكن في رحلته الإخوانية سهلاً طيعاً، وهم كانوا يظنّونه شاباً مشاغباً مزعجاً، وكان مردّ هذا الظن أنه كثير السؤال كثير الاستفهام، وهذه أشياء تقدح في إخوانيته، فكان أن تسلّق سور الجماعة ونظر إلى العالم الذي كان يظنّه عالم الأشباح، فإذا به عالم من لحم ودم، حياة إنسانية بكلّ معانيها، غاب عنها وغابت عنه. عرف وقتها أنه كان يعيش في عالم الأشباح، فقرر أن يقفز من سور الجماعة، وولّى هارباً لا يلوي على شيء.

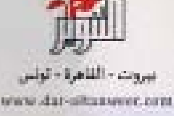
في كتابه هذا يؤكد سامح أنه لا يهاجم ولا يجرح، ولكنه يحكي «حدوتة مصرية» بسيطة لشاب مصري استجاب لنداء النّداهة فذهب إليها، ولكنه عاد إلينا مرة أخرى، وحين عاد، عاد ليحكي.

ثروت الخرباوي

«سامح فايز هو الشاب المصرى العاشق للحياة وللحرية، فكان لزاما أن يهجر الجنة الكاذبة، القائمة على الانسحاق والطاعة والكذب المنهجى، استمتعت بقراءة هذا الكتاب الفذّ، وبأسلوب كاتبه الموهوب.»

أحمد صبرى أبو الفتوح





بيروت - القاهرة - تونس
www.dar-altanweer.com